التعيس لا يصنع فرحا

ⓒ دار الأدب العربي للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدخيل، ميمونة

التعيس لا يصنع فرحا. / ميمونة الدخيل، الدمام، ١٤٣٩هـ

.. ص ؛ ..سم

ردمك: ٣-٣٦-٨٢٤١-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ. العنوان

ديوي ٨١٣،٠٣٩٥٣١ ١٤٣٩/٥٨٤٦

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٥٨٤٦

ردمك: ٣-٣٦-٨٢٤١-٦٠٣-٩٧٨

**مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع**

**الموقع الإلكتروني :**

**www.daapd.com**

**@servicesbook**

**@Services_Book**

**@Services_Book**

**مركز الأدب العربي**

adabarabic7

**services_book@outlook.sa**

**للتواصل:**

**0597777444**

**لجنة النشر :**

**المملكة العربية السعودية- الدمام**

**لطلب اصدارات مركز الأدب العربي 0594447441**

**التجهيز الفني للكتاب**

**مركزخدمة المؤلفين**

**تصميم، تسويق، طباعة، توزيع**

**للتواصل واتس:**

**مصر- 00201120102172**

**الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر .**

**جميع العبارات و الأفكار الواردة في الكتاب تعبّر عن وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر .**

رواية

# التعيس لا يصنع فرحا

ميمونه الدخيل

@no0ona1029

الطبعة الأولى

٢٠١٨م - ١٤٣٩هـ

# إهـداء :

**إلـى** من يجد في كلماتي المعنى الذي غار في نفسه فأخرجته ، والترجمة الوافية لأفكاره ففسرتها .

**و إلـى** من لم يجد شيئا لا تيأس .

نعـم إنه الحليب الذي أرغب به عندما أفكر في أي شيء، إنني أرغب بالحليب دائما وهذا ما يغيظ والدتي (هل ما زلتَ طفلا يا سلمان لتشرب الحليب بهذه الكمية؟! ألا ترغب بالشاي؟، إنه رائع بالنعناع، سيعجبك)

في الحقيقة لا يستهويني أعتقد أحيانا أني أعوض جسدي بالقوة بعد أن فقدتْ ذراعي اليمنى قوتها تماما، أصبحت تشكل ثقلا عليَّ وأفكر أحيانا كيف ستبدو الحياة بعد أن أتخلص منها!

ابتسمتُ بينما أعبر الشارع لأصل لسيارتي حين تذكرت والدتي وهي تصرخ بعصبيةٍ وتهدد (احذر أن تفكر بهذا الأمر، ستكون مشوها) أخفضت يدها المهددة ببطء بينما عيناها مازالت في وضع لا أعلم ماذا أسميه تبدو كالجاحظ فهي لم تنتهِ بعد من تهديدها إلّا بعد أن قالت (من سيزوجك!)

نظرت إليها بأسى (ومن سيزوج مشلول اليد وغير موظف لأنه لم يتعلم أساسا؟)

كان الصمت هو كل شيء

يجب أن أحمد الله كون يدي لا تؤلمني الآن وذلك منذُ خمس عشرة سنةً بعد أن كانت تؤلمني بشدة حتى لم أكن لأستطيع تحريكها ثم توقف كل شيء فيها الألم والحركة أيضا

في المدرسة لم أتمكن من الإمساك بالقلم فكانت أصابعي أضعف من أن تمسكه، بينما يحاول الطالب الذي بجواري إقناعي بسهولة ذلك ولم يقتنع عندما أخبرته أنني مريض، فجأة وضع راحة يده على جبهته يتحسس حرارة جسده ثم تركها ليمسك يدي ويطلعني على النتيجة التي وصل اليها: (أنا أيضا حرارتي مرتفعة وأستطيع إمساك القلم، أرأيت؟) لم أرَ شيئا سوى أنك لن تفهم ما أشعر به – أُحدث نفسي – هذا بخلاف الغياب الكثير الذي اضطرني إليه الألم الشديد ومواعيد المستشفى والتشخيص النهائي هو إصابتي بالتصلب اللويحي

حاول والداي تدريبي على الكتابة باليد اليسرى لكن لم أستطع أو ربما يجب عليَّ أن أعترف، لم أكن أرغب بالدراسة وبكيت بشدة

واصفا الألم الشديد في يدي اليسرى عندما أحاول الكتابة بها خاصة وأن جسدي ضعيف ويمكن أن تتكرر المشكلة مع أيٍّ طرف آخر من جسدي. وانتهت مسيرتي التعليمية فعلى الأقل قضيت على أُمِّيتي بالقراءة والكتابة هذا ماكنت مقتنعا به حينها ويبدو أن محمداً أخي الثاني – ويكبرني بسنتين فقط – مقتنعٌ بها ولكن توسلاته لأمي لم تغير شيئا فهو ليس مريضاً

(ليتني مثلك) يرددها مقطبا جبينه وأمامه دفتر كتب فيه بضع كلمات وعليه أن ينسخها، أبتعد عنه لألهو مغتبطا.

منذ ذلك الوقت وإخوتي ينظرون إليَّ بشكل مختلف كقطة مدللـه أو ربما تحفة فنية يجب الاعتناء بها وحسب، حُرمت من كثير من الألعاب مثل البلايستيشن فهو يتطلب أداة اللعب بكلتا اليدين، لم أستسلم بسهولة لهذا الحرمان فرحت أبكي بشدة محدثا الضجيج الذي لا يطيقه إخوتي حين تتطلب لعبتهم التركيز، ينتهي الأمر بقرار الأخ الأكبر ناصر بإشراكي في اللعب: (أُمسك أنا الجهة اليمنى وأنت الجهة اليسرى، اتفقنا؟) يقول ناصر، أستعد لأخذ وضعية اللعب المناسبة بالجلوس

أمام ناصر أُغالب شهقاتي المحتضرة، أُمسك بالأداة من الجهة اليسرى كما اتفقنا لكن الاستمرار على هذا النحو سينتهي بخسارة ناصر، يمد يده تدريجيا على الجهة اليسرى حتى يستحوذ عليها، بالمقابل أتنازل عنها راضيا أتابع لعبهم ثم أميل بهدوء للخلف وأنعم بنوم هادئ في حضن شريكي.

***

(استغل الوقت في النوم هذه فرصتك استغلها وإلّا ستندم) مللت من أخي ونصائحهِ المتكررة أشعر أحيانا أنه يحسدني بينما أحسده على حياته الطبيعية، النوم أفضل من التفكير به.

غطيت نفسي تماما كما أفعل كل يوم بعد أن أستيقظ صباحا أو ربما ضحى وأخرج دون أن تكون لي وجهة محددة ثم أعود إلى فراشي الذي يحتضنني دائما في كل حالاتي إنه الوحيد الذي لا يمل وجودي.

حرارة الشرقية تنتصر على مخترع أجهزة التكييف لتكون مجرد خردة تصدر الأصوات وقد تمطر أحيانا

مددت يدي متكاسلا إلى هاتفي الجوال، حالة الطقس تشير إلى ٥٠ درجة مئوية كدرجة حرارة عظمى

(سيموت الأوروبيون لو وضعوا هنا) قلت ذلك ساخرا بينما قادني الفضول للبحث عن أعلى درجة حرارة

في أوروبا، ربما لم تتجاوز ٤٥ درجة مئوية هذا إذا وصلت إلى هذا الرقم وتجري تحذيرات وتنبيهات للمواطنين للتعامل مع شدة الحرارة، قد تحدث وفيات وحرائق، شعوب مترفةٌ حتى أراضيهم تبدو كذلك، بينما تغلي أراضينا لتطبخ المندي، لا غرابة أن نكون شعوبا صبورة!

إنهم يُعْزون ارتفاع درجة الحرارة لما يسمونه الاحتباس الحراري، عند هذا الحد أغلقت الهاتف فلا يهمني أكثر مما عرفت.

تململت في فراشي، الجو الحار يقلقني والموقع السيء جدا لسريري تحت النافذة التي تسمح بنفاذ كمية من الحرارة. لم أعتد على الاستيقاظ مبكرا، قد يكون قضاء الوقت بالتفكير حتى يعاودني النوم أمراً جيداً

في الحقيقة لا يوجد في حياتي ما يستحق التفكير، بل إنها أبسط من ذلك

فكرت في ذلك وقد مر بي طيف حزين ، وبينما أتقلب في فراشي لعل تلك الأفكار تنقلب عني شعرت بثقلي وأدركت أنني لم أعد أتمتع بالرشاقة الأمر الذي أمسك لسان والدتي عن تأنيبي بعد حادثة الهبوط الرهيب لوزني وإن لم يكن متعمدا بالصفة التي وقعت لكنه صادف هوى في نفسي فأهوى بي تماديا وكأنه يقول ما نريد لا ما تريد!

***

وكان ذلك عندما رغبت بإنزال وزني قليلا للوصول للوزن المثالي.

بدأت فعلا في اتباع نظام التخسيس الأشهر وهو أقفل فمك وأطلق رجليك.

وصلت إلى مرحلةٍ مُرْضيةٍ وأكثر ما أرضاني هي ملاحظة من حولي بالتغير الحاصل لي،،

هل انتهت قصتي مع الوزن؟ لا

في الحقيقة لم أستطع السيطرة عليه كما لم أستطع السيطرة على عواطفي التي فاجأتني بعد فترة لا تتعدى الأشهُرَ باكتئاب رهيب ولم أكن أشعر بالجوع حينها، فقط كنت أُذكر نفسي بشرب كأس من الماء حتى إذا متُّ لم يعتبر موتي انتحارا

تغير شكلي خلالها تغيراً ملحوظاً، وملابسي لم تعد تناسبني فهي تسقط، هذا التغير الوحيد الذي لاحظه الآخرون وللأسف.

فالبشر في الغالب لا يأبهون بالمشاعر ولا ينظرون للأسباب بل للنتائج وكأن النتيجة تخلق نفسها ثم يصرخون بك: توقف! هل ترغب بالتحول لهيكل عظمي؟

أعتقد أنها الغيرة، لقد يأس أصحاب الأوزان الثقيلة من ضبط أنفسهم ولا يرغبون بمتابعة نجاح أحدهم حتى لا يظهر مقدار ضخامتهم عندما يجدون طفلا يرفض الطعام يحاولون حثه على الطعام بقولهم (كُل لتكبر).

هذه خدعة مزدوجة!

الطعام لا يجعل الإنسان يكبر ثم ما لميزة التي تحملها الحياة للكبار؟

تبا لهؤلاء جميعا كل ما يهمهم هو الجسد والمظهر

***

سرحت بفكري مغتما كما يحدث كثيرا، في حين تقطعه أمي بنداءاتها المتكررة لتناول الغداء أو العشاء أو الاطمئنان عليَّ ففي نظرها لست إلّا طفلا يحتاج للرعاية والاهتمام ولا شيء آخر يمكن أن يطلب منه ولم يقنعها ذلك الشارب الكث الذي أهملته متعمدا لعلها تغير فكرتها عني

كم عمري الآن؟ هاه؟ ٢٥ عاما، لقد جربت أن أفعل الكثير والفرص متاحة لكن غضب أمي العارم لأي مبادرة مني تجعلني أتراجع سيما إذا رددت مقولتها: من يحب أمه لا يغضبها

وإذا ما وجدتْني حزينا، حاولت إقناعي بأن جسدي المريض لا يحتمل فَيَدي متعبه ويجب أن ألتزم الراحة دائما

أعتقد الآن أني مريض حقا جراء هذه الراحة المؤلمة أليس من المؤلم أن تكون لك القدرة فيما تُمْنع من ممارستها إنها تصدأ كما الأجهزة بعد أن

تترك فترة من الزمن دون تشغيل ثم تتلف، هذا بالضبط ما أخشى منه، يجب على والدتي أن تعلم أن حياتي لا يمكن ان تستمر بهذه الطريقة لا لشيء إلّا لأنني سأكبر وتزداد احتياجاتي ولا يمكن أن أعتمد في تحقيقها على أحد فلا يمكن لأحدهم أن يُسخِّر حياته لأي كائن كان إلّا لابنه وهو على كل حال لا يستطيع المحافظة على صحته وقوته ليعتني به، هذه الفقرة الأصعب في الطرح مع والدتي

***

انتبهت من شرودي مرةً أخرى ذلك الشرود الذي يأخذني بعيدا فيما يأتي بأمي لتطمئن عليَّ

هذه هي تطرق الباب ، هذه المرة يبدو أن تجاهلي لنداءاتها أفزعها

– حاضر يا أمي، أنا قادم

***

إنه وقت العصر،، وكالعادة الجميع مشغول الكبار بمهامهم الوظيفية وبعضهم العائلية والصغار بمهامهم المدرسية أو لنقول

الصغير فلا يوجد بمنزلنا إلّا صغير واحد أخي عمر وهو الأخ الوحيد الذي يليني، يبدو أن مرضي قد سبب لأمي تعقيدا شديدا وحرصاً على أن لا تنجب أطفالاً أكثر وربما عمر الذي لم يأتِ إلّا بعد عشر سنوات من ولادتي لم تنجبه عن رغبة، ووالداي يحتسيان الشاي وجل ما يتحدثان عنه هو حال إخوتي، أُسَرهم وأبناؤهم أو وظائفهم فيما لا يأتي الحديث عني إلّا من جانب التحسر، في الحقيقة لا أشعر بأنَّ حالي سيء إلى هذا الحد

لا أعلم ما لذي يحاول والداي إقناعي به؟

أمّا أنا وبعد أن أسمع سيل الحسرات هذه لا أملك رد فعل إلّا الشرود والتفكير في حالي

لم استطع إكمال تعليمي بل إنني لم أحصل على شهادة ابتدائية وكل ما اكتسبته من التعليم هي القراءة والكتابة فملازمتي للفراش لطول فترات مرضي أرغمت والديَّ على إيقاف تعليمي

والآن ما لذي يمكن أن أحصل عليه من وظائف!؟ وجواب والدي الوحيد هو أنه موجود ويتكفل بكل مصاريفي ولا داعي للبحث عن وظيفه فمرضي لا يسمح لي ببذل جهد ولو بسيط

اوه مرضي، مرضي، مرضي يحاصرني من كل جانب

أبدو كقطعه فنية يجب الاعتناء بها لتبدو دائما في صحة جيدة ولا يمكن الحديث معها بطبيعة الحال ربما في حالتي يمكن الحديث معي عن الأدوية، فتحت جهازي ورحت أتصفح الرسائل، انطلقت مني ضحكة مجلجلة مقصودة لشد انتباه والديَّ

واخيرا ها هما ينظران إليَّ، وأنا أُبالغ بالضحك

- (نكتة)

حسنا ربما لم أكن أتوقع رد فعل أكثر من الابتسامة

- حبيبي، هل أخذت دواءَك بعد الغداء

-!

هذه الأدوية لم تكن يوما علاجا لمرضي بل إجراء وقائي يتضمن الكثير من الفيتامينات والخزعبلات التي تظهر من حين لآخر حسب ظهور الأطباء الجدد على الإعلام وحماس أمي المتقد لتتبع طريقة كل واحد منهم وسرعان ما تنساها عند ظهور طبيب آخر حتى أني رجوتها أن تتمسك بطريقة أحدهم المعتمِدة على العسل كعلاج أساسي لكل مشكلة وأُقسم لها باكيا أنّ معدتي ستمرض من كثرةِ وبشاعة محتوياتها كنت وما زلت الابن الوحيد الملازم لوالديَّ والأكثر حديثا معهم، ولم يجداها ميزة فهذا لا يذكرهما بشي غير مرضي ودوائي.

- أين ستذهب يا سلمان؟

- سأخرج قليلا

- هناك غبار في الخارج

- لا تقلقي ، سأنتبه

- غط رأسك جيدا والبسِ الكمامة،، والجوارب لا تهملها حتى وإن كنت لا تحبها فهي مهمة لصحتك و،،

- سأذهب إلى اللقاء

قد لا تتوقف أمي عن إسداء النصائح والتوجيهات لو لم أذهب فورا فلديها الطاقة الكبرى على ترديدها حتى وهي في قمة انشغالها فقد أَحتل مساحة لا بأس بها من دماغها لا تحتاج معه لتتذكر ما تريد أن تقوله يكفي أن أُصدر أيَّ إشارة للقيام بأي عمل لتهذوه هذا

خرجت إلى مقهى قريب من منزلنا فيه بعض من الضجيج الذي يلائمني فحياتي يحيطها الهدوء الممل،، دلفت إلى داخل المقهى واخترت طاولةً تتوسط المكان لأستمتع بمراقبه الجميع، طلبت كأسا من الشاي، في حين دخل إلى المقهى خمسة شبان يبدو أنهم أصدقاء من عائلةٍ واحدةٍ وفي أعمار مختلفة فأحدهم يغبط الآخر على تخرجه من الجامعة بينما يتبقى له مشوار طويل على التخرج كما يقول،،

أستطيع تصنيف نفسي مستمع من الدرجة الأولى إلى الحد الذي لفت انتباههم إلى مراقبتي لهم.

شعرت بالحرج وتظاهرت بانشغالي بقهوتي

أفتقد وجود أصدقاء حولي،، فلم تتسنَّ لي فرصة تكوين صداقات فأنا لم أدرس في مدرسةٍ ولم ألتحق بوظيفة،، وكثيرا ما أُلازم الفراش فيما يخرج إخوتي للعب مع أطفال الجيران ولم أحظَ بصديق من بينهم أيضا فلا أحد يرغب بصديق مريض أمه تمنعه من الخروج في أغلب الأوقات

كان حديثا تافها ما يدور بين هؤلاء الشبان كلها تدور حول المعدة، أفضل المطاعم وأفضل المقاهي والوجبة المفضلة لكل واحد منهم والمطعم الأكثر شعبية والأجمل إخراجا ووو، استعلامات مطاعم متنقل أو مرشد مطاعم قد يحقق هذا المشروع نجاحا باهرا، مبلغ مادي بسيط مقابل كل استشارة وإذا أُعجب الزبون بالمطعم المشار إليه يجب أن يخجل من نفسه ويدفع المزيد، شعرت بمتعة الاستماع لهم منحوني فرصة للتفكير بمشروع ناجح لا يمكنني تنفيذه، ما أستطيع فعله هو فقط التفكير، لربما كان هذا مشروع ناجح أيضا (أُفكر عنك) لكل من أرهقه التفكير دع مشكلاتك لي أفكر بها، قد يكون أكثر زبائني هن

النساء، قد أستطيع التعامل معهنّ بشكل أفضل فالحقيقة المخجلة أني أعرف أحاديث النساء أكثر من أحاديث الشباب

(سامحك الله يا أمي)، خرجتْ مني بشيءٍ من الحسرة حين تخيلتُ نفسي جالسا بينهم فماذا عساي أن أقول؟

رفعت رأسي أنظر إليهم وأُصِبت بالارتباك فجأة عندما لمحت أحدهم يحد النظر إليَّ

غادرت مكاني مسرعا فيما مال الشاب لجاره يحادثه وعيناه لا تغادراني

ربما ضايقتهم

كنت أتحدث في عدم إجادتي للكلام فكيف بعراك!

(هذه السيارة الجرباء كثيرة الأعطال)

ركلتها بقدمي غضبا، فأشد ما أكون في حاجتها تتوقف وكأنها لم تتحرك قط.

أشعر بالغضب الآن لأن والدي يرفض إعطائي سيارة جديدة لأنه يعتقد أنني قد أتسبب بحادث وأُفسدها لشلل يدي

إنني مريض وهي كذلك مريضة يبدو أن كلانا لا يحتمل الآخر

هكذا يقولون: إنّ المرء ينفر من أشباهه لأنه لا يحب أن يرى عيوبه عند غيره

ربما عليَّ أن أطلب مجددا من والدي سيارة جديدة

لكن هذه المرة دون حضور (محمد) فهو لا يدرك ما يقول أحيانا مع حسن نيته

صمَتُّ في المرة السابقة لكني لن أفعل ذلك مرة أخرى إذا ما سمعته يقول (في النهاية ستعطيه، فهو ليس مثلنا يتوظف ويشتري لنفسه) هكذا حاول إقناع والدي

ماذا كان يجب أن يقول؟! ليس من المستحيل أن يقول (في النهاية ستعطيه، فسيارته لن تصمد كثيرا)

لماذا عليَّ أن أحذف الجزء الخاص بالتوظيف؟ أهذا هو اليأس أم الحقيقة؟

***

الوقت يمر بطيئا،، أخبرت محمداً أن يوصلني للبيت ولكنه رفض لعدم رغبته في العودة للورشة مرة أخرى وعليَّ الآن أن أنتظر من ثلاث ساعات إلى خمس فهذا الوقت المتوقع لإصلاح السيارة،،

قمت أذرعُ المكان جيئة وذهابا وأنظر إلى السيارات المصفوفة، هناك الأسوء من سيارتي وابتسمت ساخرا،،

- أخي، لو سمحت هلا ناولتني هذه،،

وأشار بعينه لأداة قريبةٍ مني

- تفضل

مددت الأداة للشاب باليد اليسرى كم هو مخجل هذا التصرف في مجتمع عربي إسلامي، ولم تغب عنه بالطبع وهو ابن البلد، حيث نظر

ليدي الأخرى مطولا وأخيرا أخذ الأداة وأشاح بوجهه سريعا بعد أن علم أنها مريضة

- شكرا لك، أنا آسف كما ترى كل العمال مشغولون وأحتاج من يساعدني

- لا داعي للأسف، أشعر بالملل وأيضا ما في يدك هي سيارتي

- كان بإمكانك الذهاب للمنزل بدل الانتظار

ذكرت له رفض أخي وعذره بقوله (الكل مشغول ولا أحد يتفرغ لأحد) وجدته مستغرقا في عمله فقررت الذهاب لشراء بعض التسالي، ثم عدت لأنظر للسيارة ويبدو أنني جئت في الوقت المناسب فقد كانت يحتاج من يناوله أداة بعيدة عنه لكن هذه المرة كنت ممسكا بعلبة في يدي، تصرفت بسرعة وضعت العلبة على الأرض والتقطت الأداة وأعطيتها للشاب وشعرت بنبرة اعتذار في صوته

- والله آسف أرهقتك معي

- لم أجد أيَّ نوع من الإرهاق، أحببت مساعدتك فذلك يشغلني

صمتَ قليلا بينما حفزني الموقف على الحديث، في الغالب لن أجد مثل هذه الفرصة لتبادل الحديث مع أحدهم

- صحيح أن يدي اليمنى مشلولة لكن الثانية في حالة ممتازة ولا أشتكي منها ولله الحمد

كانت مقدمة مناسبة سمحت للشاب بإظهار فضوله

- هل أُصيبت في حادث؟

- لا، كانت مريضةً منذ صغري حتى شُلت تماما

أخرج صوتا مظهرا الألم

ولأول مرة في حياتي لم أكره الحديث عن يدي وما سَبَّبه لي مرضها من متاعب

كان الحديث مع ذلك الشاب ممتعا، شيء ما أعجبني في شخصه، أعتقد أنه الشعور بالألم أقصد أنه يعاني وهذا ما جعله يعاملني بشكل

أفضل، معاملة لا تظهر معها الشفقة، أعتقد أنه حرص على عدم إظهارها وخاصة أني لم أُظهرها له بعد أن فاجأتني سعوديته وأخبرني كم هو مزعج أن يرى الآخرون أنك تستحق الشفقة لأنك تعمل في ورشة وعلق:

– وماذا في ذلك؟ هل يتوقعون مني أن أنتظر دوري سنوات للعمل في مكتب!

ومرت لحظات الفضفضة سريعا.

لابد أن أعترف أنني تمنيت حقا أن يلحق سيارتي أيُّ عطب يلزمني زيارة الورشة ورشة الصديق، ابتسمت بينما أفكر بالكلمة الأخيرة، شعرت أخيرا أنه بإمكاني الحديث لوالدتي عن صديق عن شخص خارج العائلة كما يفعل إخوتي، لكن يتوجب حدوث الكثير من المواقف التي تستحق الذكر.

بدا لي أن السيارة تحاول مخالفة رغباتي، فبعد مرور عدة شهور على آخر عطل أصابها لم تصب بأيِّ مشكلة

أشعر أحيانا أنني تافه لرغبتي بلقاء أحدهم بهذا الشكل، لا أعلم هل الآخرون يشعرون في وقت ما بنفس شعوري؟ أم أنهم أبطال في إخفاء المشاعر؟ ربما لا يجدون أنه من المناسب إظهار هذه المشاعر لشخص جديد!

كنت أفكر بذلك حين مررت بورشة الصديق وقررت حالا أن السيارة تحتاج للتنظيف

كنت أحاول البحث عنه ولأن كبريائي لم يسمح لي بإظهار الاهتمام بأحدهم ومن ثم عليَّ أن أُظهر المفاجأة إذا لاقيته وخشيت الحرج إذا لم يتعرف عليَّ خاصة أنه يتعامل مع الكثير، لكن هذا لم يحدث ولله الحمد فحين تصادفت أنظارنا ابتسم لي، ترددت قليلا ثم انطلقت بابتسامتي المهرجة لأصافحه وأنا خجلٌ جدا من أن يدي اليمنى لا تستطيع عمل ذلك

بادرته: عملك ممتاز، فسيارتي لم تحتَج لدخول الورشة بعد إصلاحك لها منذ ثلاثة أشهر على غير عادتها

ابتسم قائلا: الحمد لله ثم نظر لي مترددا: ولو أنه ليس من صالحي أن تبقى في حالة جيدة، ضحكت وأخبرته: وليس من صالحي أيضا فهي بذلك ستجعل أبي يتمسك برأيه بعدم حاجتي لسيارة جديدة، تخيلت للحظة أن نظرة حزن طلت من عينيه لكنه قال: يمكنك أن تشتري سيارة لنفسك بنفسك، وتأكدت أن نظرة الحزن تلك لم تكن خيالا لكنها امتزجت الآن بابتسامة تؤيدها حين قال وهو يشير لسيارته المركونة خارج الورشة: لم يشترِ لي أحد بل لم يساعدني حتى، اشتريتها بما جنيته من مال من أعمال متفرقة، شعرت أمامه كم أنا صغير ومدلل ابن الماما والبابا، كرهت هذا الشعور، أوقف الشاب استرسالي في المشاعر باستطراده: هل تدرس؟، أجبته من دون تحفظ: لا، لم أكمل تعليمي بسبب يدي، قال: إذن هل تبحث عن وظيفة؟، أخبرته: وددت ذلك، لكن والديَّ لا يشجعان، أكملت محبطا: لم يجد الجامعيون الأصحاء وظائف فهل ساجدها أنا؟، رد بانفعال: أستطيع إيجادها لك.

كان لنايف العامل في الورشة وقد عرفت اسمه لاحقا عم يملك قرطاسية وقد احتاج لمن يساعده في العمل فيها، بعد أن اضطر نايف محرجا مغادرتها بعد التحاقه بالعمل في الورشة حيث كافح ليجمع بينهما لكن ذلك أصابه بإرهاق شديد لذلك آثر التخلي عن المكتبة وذلك قبل شهر تقريبا وليعوض عمه بالبديل المناسب الذي كان في نظره أنا ولم أُخفِ شكي بمناسبتي فكيف سأعمل بيد واحدة فلربما احتاج الأمر لحمل أشياء ثقيلة؟ قلته له محتجا، فقال: لا تخف لديه عامل في المحل يمكن أن يقوم بالمهمة عنك وفيما عدا ذلك يمكنك أن تقوم به، قالها بثقة والتحقت بالعمل في القرطاسية بعد يومين فقط.

***

خرجا من العيادة وكالعادة مطأطئا رأسه، بينما هي تختفي خلف عباءتها، دلفا إلى السيارة سريعا ثم انطلاقا دون انتظار لتسخين السيارة فليس هو بالموقع المناسب الذي يطيل فيه أحدهم الوقوف،،

- ألا تشعرين بتحسن؟ الطبيب يقول إنّ حالتك في تحسن مستمر وربما لن تحتاجي للعودة للعيادة مجددا

الحديث في الموضوع يكتم الأنفاس حتى لو كان في سياق العلاج والشفاء أوِ التحسن،، كلها تتعلق بذات الموضوع، ربما لن يكون من السهل تجاوزه حتى بعد مرور السنين والموت!

أدارت رأسها عن نافذة السيارة كمن يرفض رؤية العالم فمستقبلها فيه معتم لا يحمل إلّا تبعات الماضي،،

الماضي الذي توقفت عنده حياتها ومستقبلها عند الساعة الثانية ظهرا،، تناثرت فيه الأحداث والمصائب كعقد تناثرت حباته دون أن يُعرَف لها عدد إلّا أن يلطف الله،،

كيف لها أن تعرف أنّ نومها في الملحق في ذلك اليوم لن يكون ككل يوم؟ حيث تعود من مدرستها الثانوية وتستلقي عند تلفاز الملحق، التلفاز الوحيد الذي يحوي قناتها المفضلة، وهكذا حتى تنام.

كان كابوسا بدأ في منامها واستمر حتى بعد أن استيقظت وهو ما تعيشه كل يوم بل هو حياتها

حين وقعت عليها تلك الجثة النتنةُ تعبث بعفافها، استيقظت وأدركت ما يحدث لها بدأت بالصياح فلم يكن من العامل القذر إلّا محاولة الهروب لكنه صادف أخاها في طريق خروجه، حاول الأخير الإمساك به ورأسه يغلي بالأفكار في سبب وجود هذا العامل في البيت وصياح أخته واستسلمت أفكاره لأبشعها فكل القرائن تدل على أن هناك اغتصاب

الكارثة امتدت مع خطوات العامل حتى وصل إلى باب الشارع حيث توقف عنده ريان ابن العم مروان بحثا عن سائقهم،،!

أمسك عبدالله به وهو في حالة لا تسمح له بالتفكير بدأ بضربه ويداه تطيشان في كل اتجاه لا يعقل من أمره شيئاً بينما يحاول ريان فهم ما يدور حوله فهو يجهل سبب وجود سائقهم في منزل أبناء عمه!، كان من المتوقع أن يكون بعد الساعة الواحدة والنصف ظهرا في غرفته بعد أن

ينتهي من توصيل أبناء عمه والمساعدة في إدخال ابن عبدالله المعاق إلى داخل المنزل

– يا..... يا..... تعتدي على حرمة بيتي، ماذا فعلت بأختي أخبرني يا.....

كان يصرخ بأعلى صوته غير مدرك أنه يصرح بالفضيحة التي جعلت من ريان يتجمد مكانه كالجدار تماما حتى استمر عبدالله في الصراخ ليكشف كل شيء،،

وصلا إلى المنزل أخيرا بعد أن ردت عليه باختصار: أتمنى ذلك

رد مربك لا يحمل شرا ولا خيرا، يبقيك معلقا مع الماضي تبتلع مرارته كسم ينقط كل دقيقة على فمك

تحركت فورا إلى غرفتها لتغلق الباب جيدا فهي تسمح لنفسها بالبكاء والبكاء مادامت منفردة

كان من الممكن أن تنتهي المصيبة عند ذلك الحد لكن وجود ابن عمها في تلك اللحظة أبقاها مفتوحة

قرر عبدالله ضرورة الكشف عليها ليطمئن وعندما ظهرت النتيجة كانت نصف مطمئنة فالفتاة لم تعد عذراء لكنها أيضا لا تحمل في جوفها ما يشي بأمرها، فهي عقيم.

لم يستطِع أن يحمل هذا الهم وحده، جاهد ليتماسك حتى يحضر أخوه الأكبر عبدالرحمن من المدينة التي يعمل فيها ثم انهار أمامه تماما لكن دموعه لم تكن كافية لتخمين المشكلة لأنها أكبر من ذلك حتى أنها لا تذكر مع الخيارات

– عبدالله ماذا بك؟ يا رجل؟ ماذا بك؟ هل أمي فيها شيء؟ عيالك؟ أمهم؟ أخواتي فيهن شيء

وعبدالله لا يقوى إلّا على الإطاحة برأسه يمينا وشمالا

– طيب، تكلم ماذا بك، أوجعت قلبي

– ماذا أقول يا عبدالرحمن (ويجهش بالبكاء)

– عبدالله تكلم وإلّا سأخرج (يقف مهددا بالمغادرة)

يمسك عبدالله به بينما يغلق بيده الأخرى فمه ليحد من ثورة بكائه، ثم أشار له بالجلوس

- لا إله إلّا الله (رددها عبدالله ثلاث مرات لتسكن بها نفسه ليجد القوة الكافية للحديث)

ولكن عبدالرحمن لم يجدها ليتماسك مع وقع الخبر عليه، ولكنه أفضل حظا من أخيه الذي لم يجد من يواسيه

- صحيح أني كنت مهملاً وسمحت للعامل بالدخول يوميا للمنزل حتى علم بأحواله، لكن لا ينفع الآن هذا الكلام، قدر الله وما شاء الله، الحمد لله على كل حال

بدا عبدالرحمن مسترخيا في جلوسه استرخاء المريض المنهك، وفجأة التفت إلى أخيه مستدركا:

- وريان؟

- ماذا به؟

- عرف

أدار عبدالله رأسه وقد فهم المغزى

- هل دفعت له شيئاً لإسكاته؟

- ابن عمنا ويفضحنا! عرضنا من عرضه؟

ولا يظهر على الكبير الاقتناع

***

أستطيع أن أعلنها الآن، أنا سعيد وأشعر بقدرتي وكفاءتي كأي شاب يمكنه الاعتماد على نفسه،

شاب مشغول لديه وقت للنوم ووقت للاستيقاظ ويمكنني استعجال والدتي لتجهيز الغداء كما يفعل إخوتي للحاقِ بوظائفهم، بل إنني أستغرق وقتا أطول للعمل

وحينما اقترح عليَّ صاحب المحل تقليل ساعات العمل رأفة بحالتي قالها خجلا هكذا:(ما ودي أتعبك) وهو يشير إلى يدي، أخبرته أنها

متعطلة فحسب وقد يرهقني كونها كذلك لكن هذا سيلحق بقية جسدي إنْ تركته متعطلا، كنت أشتعل طاقة تعرفت على الأسعار وأسلوب البيع واستخدام الأجهزة.

عائلتي تنظر لي الآن بشكل مختلف، فلدي ما أقوم به ولديها ما تطلبه مني بل إنّ أمي أخبرت أخواتها بقدرتي على مساعدتهم لأي غرض في القرطاسية.

حتى عندما كنت أشتري الهدايا أو أدعو العائلة على وجبة من حسابي، حدثني أبي في جلسة خاصة شعرت فيها بقيمتي كشاب مقتدر لا طفل مدلل حتى نبرة صوت أبي بدت لي مختلفة كنظرته تماما:

- أصبحتَ الآن رجلا ما شاء الله ولديك عمل، أنت لست محتاجا للمال)

فكرت فيما عساه أن يقول أدفع له الراتب؟ والدي بحالة مادية ممتازة ولا أظنه يفكر بشيء كهذا، أو أترك العمل! شعرت بضيق فيما أكمل متأنيا: (أقترح عليك أن تحتفظ بالمال ولا تصرفه) أشار مهددا

(حتى بأذن الله تتمكن من تكوين مشروع) هدأت نفسي (لكن راتبي ليس بالكثير) قلت (لا بأس لا أظنك مستعجلا، فقط اجمع حتى ييسر الله لك مشروعا وسأساعدك) سكت قليلا قبل ان يقول: (لقد كبرت الآن) ابتسم وقال ما جعلني أضطرب خجلا: (أمامك بيت وأسرة)

جدية والدي في هذا الحوار أشعرني بالقلق فطوال سنوات حياتي لم أفكر بمهام الكبار كنت في نَظرِ نفسي الطفل المدلل، الآن فقط شعرت بثقل كبير على ظهري قد يكون هذا ما كان محمد يقصده: (استغل وقتك في النوم استغلها الآن وإلّا ستندم) لم يكن يسخر إذن كان يقول الحقيقة.

وبالرغم من ذلك أستطيع أن أسميها (المرحلة الأفضل) في حياتي

أذكر بعد مرور سنتين من عملي في القرطاسية، هممت بالدخول للمحل حين سمعت صوت أبي ماجد صاحب المحل فتوقفت استغربت حضوره المبكر وخشيت أن يعتبر هذا تأخر من جانبي، نظرت إلى الساعة بالضبط أشارت إلى ٣:٥٧ لم يحن وقت فتح المحل

بقي ٣ دقائق، سمعت صوتا في الداخل حديثا ما، أرجو أن يسامحني الله اقتربت أكثر

- الحمد لله (كان صوت أبي ماجد)

- والشاب الذي عندك ما أخباره؟ (الصوت الآخر)

- متحمس ويسير بالعمل بشكل ممتاز، (شكرا يا أبا ماجد) همست

- هو نفسه المشلول؟

- يده فقط

- لا تقل إنها اليمنى

- بلى

- أطلق صوتاً متأسفاً: إذن كيف يكتب، بالأخرى؟

- يقوم بكل الأعمال إلّا الكتابة، يستطيع أن يكتب باليسرى لكن الخط رديء، لم يتعلم الكتابة بها إلّا بعد أن كبر

- تأوه

أسرعت بالابتعاد عن باب المحل إلى باب سيارتي عندما سمعت وقع خطوات، يبدو أن أحدهما سيخرج، لم أرغب بمقابلة الرجل فحديثه المشفق لا يناسبني ولا طاقة لي بنظرة من قبيل حديثه، كان قد خرج فعلا من المحل ويتجه لسيارته، فدلفت مسرعا للمحل ككل مرة مقبلا مستبشرا لكن هذه المرة يجب ألّا تكون كأي مرة، بل كشخص يقف أمام محاميه الذي يذود عنه، حييت أبا ماجد كما لم أحيَّه من قبل، كنت منشرحا تماما ولم يفُته ذلك فقال معلقا: بشرنا، نظرت إليه مستفسرا، فقال (وجهك يبشر بالخير) أجبته مداعبا: (لا غرابة وأنا أستفتح عملي بحضورك) ابتسم خجلا (الله يجزاك خير) وانصرف

ضحكت في نفسي فوجه أبي ماجد كفتاة تلقت غزلا للتو، هذه نتيجة الجفاف العاطفي يظهر الشخص المتعطش بشكل مضحك إذا سمع كلاما لطيفا، إنه السلاح الأقوى لتغيير مسار المشاعر لتعيش حدثا فريدا ينعشها، كلنا يعلم ذلك لكن القليل والقليل جدا وربما النادر من

يفعل ذلك، سمعت أبا ماجد يتحدث عني بشكل لطيف لكنه لم يتعمد قط أن يسمعني إلّا عبارات الشكر التقليدية، أما حديث الثناء فأسمعه مصادفة ودون علمه كان ذلك لطفا من الله لأعرف موقعي الحقيقي، يعتقد الناس أنك إذا امتدحت أحدهم سيتلبسه الغرور أو يقل مستواه لاعتماده على رصيده السابق من رضا الناس عليه، هكذا يعتقدون، قرأت مرة من كتاب عند ناصر عن تأثير الكلام السيء على الإنسان ودماغه، لا أذكر بالضبط ماذا كان لكنه بالتأكيد سيء ويكفي أن نعلم بذلك!

***

أحببت أن أكافئ نفسي فلأول مرة أجد أني جدير بذلك، دعوت نايف للعشاء في مطعم، نايف هو الشخص المناسب فبعد توفيق الله كان نايف كل شيء.

العظماء هم من تشعر بحضورهم أنك عظيم، لم أشعر قط بالخجل جراء شلل يدي وأنا بصحبة نايف، نحن وجهان لألم واحد (الكفاح)

كلانا يكافح كلانا يبحث عن مكانه اللائق في العالم غير أنه الوجه الملهم الوجه الأقوى.

قفز نايف في عمله قفزة البطولة فخلال فترة بسيطة من العمل كعامل في ورشة لا تتجاوز الثلاث سنوات استعد للبدء في مشروعه الخاص، اشترى ورشة صغيرة دفع نصف قيمتها كاش وأكمل ما تبقى مقسطا لمدة سنة والآن وبعد أنِ اطمأن على وضعها المادي ووضع أسرته التي تعتمد عليه في المقام الأول قرر أن يكمل دراسته مبتعثا إلى الأردن،،

أعترف بأنانيتي لقد حزنت أشد الحزن لفقدي له، لم أفكر أنه سيحقق أمنيته، فكرت أني سأعود لوحدتي،،

بعد أن قررتْ اعتزال الناس أو ربما أجبرتها ظروفها على ذلك،، لجأتْ إلى ألبوم الصور لتستأنس به، هم بشر لكنهم لا يتكلمون ونظراتهم الثابتة رسمت قبل أن تحمل لها أيَّ تساؤل أو شفقة،،

***

توقفتْ عند صورة قد تمزق طرفها للمى بنت عمها مروان البنت الصغرى عمرها في الصورة لم يتجاوز الخمس سنوات كانت تحبها بشده وتحرص على التقاط الصور لها، ولكن بعد الأحداث الأخيرة قررتْ التخلص من كل ما يمت لآلِ مروان بصلة، أتلفت كل الصور ماعدا واحدة توقفت عند طرفها، وضعتها جانبا

نظرتْ إلى كل تلك القطع الممزقة حولها - كروحها - تنتقل ببصرها فيها واستقر على إحدى الصور استقرار المضطرب كانت صورة منزلهم القديم الذي بدأت فيه كل نهاية حياتها، حتى زفافها الكاذب كمحاولة لتحسين المستقبل كما أخبرها أخواها، لم تعترض وتجرعته كالدواء المر الذي لن يشفي المريض ولكنه قد يحسن من حالته

تذكر تماما عندما طلبها عبدالله لدخول المجلس فتفاجأت فيه بوجود عبدالرحمن وتملكها الخوف، جالت ببصرها سريعا في أرجاء المكان تبحث عن السلاح الذي سينهي عارها

لكن عبدالرحمن حياها وطلب منها الجلوس، هدأت قليلا وعلى الرغم من أنها كانت تتمنى الموت لكنها لم تكن الطريقة التي تفضل، أغلق عبدالله الباب دونه وجلس على الكرسي المقابل لأخيه، فكانت في الوسط بينهما تماما

– سما اسمعيني وأنا أخوك نحن – قالها وهو ينقل بصره لعبدالله – نبحث عن مصلحتك (هذه العبارة لا تبعث على الطمأنينة أبدا كما يراد منها) سأدخل في الموضوع سريعا،، أنت الآن في سن الزواج وربما خطبتِ في أيِّ لحظة ولن نستطيع تزويجك و،،، سننفضح،، أنت تعلمين ما أقصد.

حاولتْ إحداث أيِّ حركة تداري بها الحرج

– وبنفس الوقت ريان عرف كل شيء،،، صمت قليلا ثم نظر إلى عبدالله مستنجدا به

– اعتقد أننا وصلنا إلى حل وسط معه، والله – ثم حشرجت الدموع صوته لكنه جاهدا ليتحدث – إنك أغلى عندنا من الدنيا كلها (تلك

اللحظة ازدحمت في ذاكرتها كل قصص ضحايا الاغتصاب، هل سيزوجها من العامل ويطلب منه السفر لبلده؟ أم أنه سيتخلص منها في دار الايتام؟ أم،،،، ما أكثر قصة بشعة ممكن أن تعيد نفسها معها؟

وعاد عبدالرحمن ليكمل حديثه:

- تكلمنا مع ريان وطلبنا منه الزواج منك مقابل مبلغ كبير،

توقف ليرى وقع الخبر عليها، لاحظ هدوؤها فأكمل:

- لكن هذا الزواج لن يستمر طويلا،! فقط ما يكفي من الوقت ليبرر عدم عذريتك ونذكر للناس أن سبب الطلاق تأخر حملك!

شهران كافيان لينجز ريان مهمته ويعيدها إلى بيت أهلها، عند هذه النقطة من الماضي تكتم الحياة أنفاسها على سما.

***

في الايام التالية وحتى بعد مرور أشهر تصل إلى سنة ونصف تقريبا كان أقرب صديق لي هو المحل، هناك أجد نفسي فكنت الجأ إليه كثيرا وأعمل فيه كمشروع يتيم في حياتي،،

كنت أفكر بذلك بينما أحتضن بيدي اليسرى بعض الأدوات لأضعها على الرف المناسب حين دخل أبو ماجد بصمت ليجلس. على كرسي المحاسب، رفع رأسه وكأنه يبحث عن شيء ثم بدا لي بأنه يتفحص المكان، لم يكن أبو ماجد على ما يرام نظرته تلك شابها حزن وهي أشد ما أكره، حاولت أن أسرع في الانتهاء من توزيع الأدوات وتركت الباقي للعامل وجاهدت لأخفي فضولي بابتسامة مرحة أطلقت التراحيب والتعليقات من لساني رغبة مني في قطع تفكيره لتنتهي النظرة الحزينة، وبالرغم من ابتسامته إلّا أنه نظر إليَّ مطولا واختصر ردة فعله بأن قال (اجلس)

اجلس! يعني هناك الكثير مما قد يقال، هناك أمر مهم، أمر لا تتحمل استقباله وأنت واقف، أمر يستدعي التركيز و،، قاطعني أبو ماجد مشكورا ليشتت قلقي:

- كم لك الآن في المحل؟

- تقريبا أربع سنوات

- ما شاء الله

قطع كلامه صمت محير ثم قال:

- أنت أحسن مني، أنا لم أعمل بقدر الساعات المتواصلة التي عملتها كُنت فقط كمشرف، وأنت ما شاء الله تعرف كل شيء صحيح؟

- الحمد لله (قلتها بفخر احترت في أمر إخفائه)

تنفس بعمق بينما يعيد ظهره للوراء ويسترخي مشبكا يديه أمامه

- ممتاز يا..... لن أقلق إذن على المحل إذا تركته بين يديك

رفع بصره ينظر للمحل نظرة شمولية ويداه مفتوحتان وكأنه يرغب باحتضانه، أكمل:

- لو تعلم ماذا يعني لي هذا المكان؟

عاد بظهره للخلف كمن يرغب بالإخبار بمفاجأة:

- هذا أول مشاريعي التجارية، أول نجاحاتي، قالها وهو يرفع سبابته، كثيرا ما استغربوا تعلقي به يقولون هذا أقل وأقدم مشاريعك لماذا توليه كل هذا الاهتمام؟ ثم يقول مقررا: النجاح الأول له طعم مختلف

جلست صامتا طوال الوقت كطالب نجيب يستمع ويهز رأسه بين الفينه والأخرى أو يعلق بموافقته لكلام أستاذه

مؤمنا أقول أن ثمة قوة تلازمني هي توفيق الله،،

الأمر الذي يسيرك ربما من دون تخطيط، تشعر أحيانا أنه وُضِع في طريقك لتجده وبإلحاح يقف أمامك أمام ناظريك لتجده لتفطن له وتقبل به ثم تأخذه معك هي فرص قد لا تأتي من المرة الأولى بشكل جذاب ومبهر لكنها تجر بعضها الكبيرة بعد الصغيرة،،

من يوم الورشة التعارفي – أسميه كذلك لأنه لم يكن عاديا بالنسبة لي ولن يكون أبدا – لم يخطر في بالي حينها أن ذلك العطل في السيارة سيجعلني يوما أجلس بين يدي صاحب مشروع كموظف عنده. وهو الآن يعرض علي شراء المحل ليكون ملكي الخاص موضحا أنه لن يجد أجدر مني ليحافظ على نجاحه الأول!

أعتقد الآن أنه يمكنني أنا أيضا أسميه نجاحي الأول.

***

كنت قد عدت لتوي من المحل حين شممت رائحة البخور الخاصة للضيوف فسألت أمي مستفسرا فأخبرتني أن عبدالرحمن أبا هيثم زميل أبي في عمله السابق قد جاء لزياته فهو لم يره منذ أن تقاعد، جلست معهما نتجاذب أطراف الحديث وبدا مُندهشا وهو يعبر عن تحولي السريع كما يقول من طفل في العاشرة إلى شاب يافع، هل تبدو الـ ١٩ سنة (للتوضيح بدأ مشروعه وعمره ٢٥ومرت الان ٤ سنوات فيكون عمره ٢٩ ، للتوضيح فقط ويحذف) سريعة؟!

ثم حول اهتمامه الكامل إليَّ وصار يطرح السؤال تلو الآخر ويبدو أن حياتي مفاجئة بالنسبة له بعد أن علم أني أمتلك محلين للقرطاسية راح يكرر: أنت شاب ناجح ما شاء الله عليك، كان ذلك كافياً لأنفخ صدري أسبوعا على الأقل.

وقبل أن أنسى هذا اللقاء الذي جعلتني ذكراه أبتسم كثيرا، فاجأني صديق أبي بزيارته لي في المحل

اشترى بعض الأشياء، ثم انطلق يتكلم وكانه لا ينوي السكوت أبدا حين جال ببصره في المحل ليجد كرسيا يجلس عليه، شعرت حينها أن زيارته لهدف ما، فهو يحاول أن يجد ما يتحدث عنه ثم يصمتُ مفكرا، لم أشأ أن أظهر له ملاحظتي وتركته ليقرر ما يريد فعله.

قال لي فجأة وأنا أستعد للجلوس في مكتبي: ألم يحن الوقت لتتزوج؟ لم أستطع أن أعرف سبب سؤاله

أجبته بخجل: في الحقيقة،، قاطعني وكأنه بطل يعلن مفاجأة ويده على صدره بينما رأسه مرتفع وعيناه تنظر بثقة ولم تفتني ابتسامته المتكلفة: لدي عروس، قررت في نفسي: تستحق هذه المفاجأة كل هذا العناء لإطلاقها.

بقيت صامتا أجهل رد الفعل المناسب فأكمل: أختي أعتقد أنك مناسب لها ولن أجد أفضل منك، لا أريد لها أن تعيش التجربة مرة أخرى مع زوج لا يقدر الحياة الزوجية ولذلك فضلت أن أبحث لها

بنفسي عن زوج مناسب ورجّال، وفيما بقيت صامتا راح هو يعدد شمائل أخته العروس.

لم أكن لأرفض عرضا كهذا فأنا لم أتوقع أبدا أن أُقبَل كزوج إذا ما تقدمت ناهيك أن يأتي أحدهم ويطلب مني التقدم لأخته

كنت سعيدا جدا ومغتبطا مع أن الشك ساورني ولم أستطع النوم في الليلة التي تسبق النظرة الشرعية، فهل تراني سأجد فيها عيبا جسديا جعل أخاها يطلب من مشلول اليد التقدم لخطبتها؟

(احنا نشتري الرجال) كررها مرارا منذ أن دخلنا منزل عائلته مسكن العروس وحتى خرجنا وكانه بذلك يبرر سبب قبولهم بمثلي.

شعرت بالدم يتدفق بقوة إلى وجهي وأكاد أحبس أنفاسي حينما أخذوني لغرفة أخرى يمكنني فيها النظر للعروس،

أعتقد أنها جيدة، ما رايك أنت؟ سألت أمي التي نظرت لي بازدراء: فقط جيدة هذا ما استطعت قوله؟، أنتم الرجال دائما متكبرين ولا تتنازلون حتى لمدح المرأة بما تستحق، البنت جمال وأخلاق لا ينقصها

شيء لكن،، صمتت قليلا ثم أكملت قد يكون طلاقها سبباً جعل أخاها يطلب منك، وفهمت مغزى حديثها وهي تنظر ليدي المشلولة.

***

كل الفتيات يتزوجن طلبا للستر، لا أعلم ما الفضيحة في كونهن عازبات لكن هذا ما يقال للجميع

ويظن ذلك الغبي ريان أنه يستفزني بقوله « تزوجتكِ لأستر عليك ولو أصبحتِ لي عبدةً طوال حياتك لما وفيتِ ردَّ جميلي »

والآن هذا الخطيب الجديد هل جُلب ليسترني؟ وكم المدة المتفق عليها؟

يقول عبدالرحمن (إن اسمه سلمان وهو في الحقيقة مرضان، له يد مشلولة على الأقل إن ضرب ضرب بيد واحدة)

لا أعلم كيف يجد أسلوبه؟ يظن أنه مسلٍ ومضحك يشتم ضعفنا في عبارة واحدة

إلى هذا الحد أنا ضعيفة؟ حتى أنني لم أجرؤ على الاعتراض أو حتى الامتعاض بل ضحكت

ضحكت لأنني قررت منذ وقت مبكر الاستسلام تماما لن أحاول تغيير أيِّ شيء تركت حياتي كلها في يدي إخوتي يتصرفون فيها كما يشاؤون، ليس لي حياة أساسا لأتصرف فيها أنا مجرد فتاة غير عذراء قبل الزواج

لن أكون إلّا هذا مهما فعلت، لم أستطع حماية حياتي من أيِّ اعتداء، لست جديرة بتولي أمورها إطلاقا

ربما شعوري بالثقل الذي أوقعته على عائلتي صنع فيّ كل ذلك الضعف

كيف سيصنع مني هذا الجديد؟

هل حياته سيئة مثلي لئلا يرغب ببقاء أثر له بالذرية؟

أفلتت مني قهقهة ساخرة بينما أذكر كلام والدته (يا حظ ولدي فيك)

أعتقد أنه تعيس إذا كان هذا هو أكبر حظ حصل عليه

***

مضى على زواجي الذي أستطيع أن أسميه موفقا ستة أشهر لكن أيَّ أعراض حمل لم تبدُ مما أثار قلق أمي وأخبرتها أن الأمر لا يستحقُّ القلق وستة أشهر ليست كثيرة لكنها أصرت وأقنعتني أن اكتشاف المشكلة إذا كانت هناك مشكلة سيعجل بعلاجها وهذا أفضل، وبالضبط في اليوم التالي كنت سأمر حتما بالمستشفى في طريق عودتي للمنزل فقررت الدخول للفحص ولم أكن قد أخبرت زوجتي بالأمر بل كان أمرا مفاجئا لم أُرتب له.

وبعد مرور أيام وكنت قد نسيت أمر الفحص ذكرتني أمي بسؤالها فذهبت في اليوم التالي لأخذ النتيجة.

دخلت شقتي فوجدتها مختلفة تماما نظرت لزوجتي التي تقوم بتجهيز الغداء شعرت أن كل شيءٍ مختلف كل شيءٍ بدا أكبر من أحلامي وأمنياتي، شعرت كم كنت حالما، جاهدت لئلا أظهر لزوجتي أيّ شيءٍ لكن شهيتي للطعام فضحتني، لم أستطع حتى إكمال لقمتي الثانية، شعرت بالوهن والضعف، وأظهرتْ زوجتي بعض القلق وهي تسألني: هل هناك شيءٌ؟ لا تبدو كطبيعتك؟

لم أجبها وغادرت المكان وأنا أتساءل: كيف ستحتمل المسكينة أكثر من كونها زوجة لمشلول اليد؟!

وقررت أخيرا أن أصارحها الآن فليس لديَّ من القوة لأتحمل هذا الثقل على صدري.

سما ناديتها وقد لاحظت أن صوتي بدا مرتجفا، حضرت بسرعة وكأنها تتوقع ندائي، جلستْ بقربي وبادرتني بالسؤال، صمتُّ لحظة قبل أن أتنحنح: اسمعي هذه حياتك وعليك أن تقرري، بدت مندهشه ولم تقل شيئا و وتلعثمتُ وأنا أبحث عن الكلام المناسب وشعرت كم أنا

فظ بعد أن قلت: لقد ذهبت للفحص بخصوص الإنجاب، فأمي قلقه بشأن تأخر الحمل وقبل فترة قررت فجأة وبدون ترتيب الدخول للمستشفى لأنني كنت سأمر عليه ولذلك لم أخبرك ثم نسيت الموضوع ولكن تذكرت البارحة فقط وذهبت للحصول على النتيجة،، صمتُ وأنا ألتقط أنفاسي واختلست النظر لزوجتي فقد كان شكلها مروعا وشاحبا،، أكملت وأنا أنظر لعينيها وأؤكد لها: هذه حياتك أنت والقرار لك؟ ولم أستطع أن أكمل

انتظرتني لأكمل وبعد أن تأكدت أنه لا نية عندي في الحديث، قالت: لم أفهم، آه لم أعهد زوجتي غبية إلى هذا الحد لكني وضحت لها بحيث تكلمت بسرعة وكأني أرمي الكلام رميا من قلبي: تبين في الفحص أني عقيم لا أُنجب.

أستطيع الآن أن أعلن لكم وبكل فخر أني حظيت بزوجة مثالية كانت كالبلسم الشافي الذي هدّأ من روعي

(بعد زواجي الفاشل عوضني الله بزوج أحمد الله عليه ولا يمكن لي أن أتخلى عنك بسهولة، وما حدث هو قضاء وقدر ومع ذلك يمكن أن يرزقنا الله بذرية إذا شاء ذلك مهما قال الأطباء فكل شيء بمشيئة الله) قالت ذلك وشعرت أن الراحة تسري في عروقي، بينما تركت والدتي تبكي وتندب حظي الذي جعلني بلا يدين وبلا شهادة وبلا وظيفة حكومية والآن بلا أبناء، وشعرت بالحزن ليس بسبب كل ذلك بل لآن والدتي مازالت تنظر إليَّ كمصدر ألمٍ لها فمهما فعلت ومهما حدث أبقى تعيس الحظ الذي تسأل الله له دوما أن يعوضه في الآخرة. ولم يفرحها قط كوني أملك عملا خاصاً وزوجة وأنني الأكثر من بين إخوتي الذي يزورها، فكرت أحيانا أنه ربما من العقوق أن أزورها كثيرا فهذا يذكرها بحالي ويحزنها لكنها لم تكن لتتركني أجرؤ على عدم زيارتها ولو ليوم واحد فقد اعتادت زيارتي وإن لم أفعل ذلك تقلق وتتصل فورا سألتها مرة (كيف أستطيع أن أجعلك راضيةً وسعيدة بسببي) قالت بدبلوماسية لا تحل المشكلة: أن تكون بخير وسعيد فإذا كنت سعيداً فسأكون سعيدةً، علمت أخيرا أنها لن تعتبرني سعيدا بمقاييسي بل

بمقاييسها هي ولذلك ربما قررت أن أستسلم وأتوقف عن البحث عن سعادتها فيدي المشلولة لن تكون أبدا متعافية.

***

في ذلك اليوم قررت الخروج من القرطاسية مبكرا لتلبيةِ دعوة عم زوجتي الذي لم أدخل بيته من أربع سنوات أي منذ زواجنا أو بالأحرى لم أدخله مطلقا وفرحت بدعوته إذ شعرت أني واحد منهم، ولأول مرة سنحت لي الفرصة لأقابل طليق زوجتي الذي كان ابن عمها وحيث أن العائلتين تقاطعتا بسبب الطلاق فلم أكن قد رأيته من قبل أبدا، وحتى هذه المرة وبعد سنوات من الانقطاع لاحظت مدى توتر العلاقة بينهم ولم آبه فلست طرفا في المشكلة.

انتهيت من العشاء وانتظرت دوري عند المغسلة التي كانت مشغولة، وقف طليق زوجتي إلى جانبي يسترق النظرات ولم أستغرب فضوله نوعا ما وباغتني بسؤاله المفاجئ وبدون مقدمات: هل تنوي الزواج بثانية؟، فكرت ربما أراد أن يعرض عليَّ التقدم لإحداهن فربما

هذه هي طريقة هذه العائلة في تزويج بناتها، أو ربما يدي المشلولة تجعل مني مرغوبا كزوج لا يستطيع الضرب بقوة كقوة وجود يدين وبدت لي الفكرة مضحكة فابتسمت: لا، يكفيني زوجة واحدة، لم تعجبه إجابتي، استمر في التحديق بي وكأنه يبحث عن شيءٍ يوضح به سؤاله: غريب لا تريد أبناء؟،،، سؤاله كان كالقنبلة التي انفجرت في صدري بقيت مدهوشا من جرأته ولم أعي جوابا فقلت: لم أفهم؟،، رد: أنا آسف لم أرد أن أحرجك لكنني استغربت،،،، لكن،، استغربت في الحقيقة كونك لم تتزوج من قبل وليس لديك أبناء ثم تقول الآن أنك لا تنوي الزواج بثانية مع أن زوجتك عقيم!

ولأول مرة في حياتي شعرت أن الحياة سيئة وأن البشر سيؤون، نظرت إلى كل شيء باحتقار وازدراء كل شيءٍ حتى نفسي، كيف لم أكتشف ذلك؟ كيف لم يخطر ذلك على بالي؟ احتقروني فقط لكوني مشلول اليد ليخدعوني بامرأة عقيم فيما كنت أظنه طيبة قلب منها وتضحية لتتمسك بي كزوج لا يمكن التخلي عنه، كيف أمكن خداعي

وخداع عائلتي بكل تلك السهولة مع أن طليقها كان قريبا جدا وكان من الممكن السؤال عن سبب الطلاق مع ذلك في غمرة فرحي لأن أحدهم ادعى بانه يشتري الرجال بدا لي بأنه يخدع المغفلين أمثالي، لم أسأل بل لم نفكر أبدا أن نسأل فيما ظنناه غنيمة باردة.

لم أُطِق النظر إلى وجه زوجتي تلك الليلة فتركتها في منزل أهلها أرفض الإجابة على تساؤلاتها واتصالاتها، في قرارة نفسي كنت أعلم أني لن أتخلى عنها لأن حياتي معها كانت كما أحببت وكلانا يعاني من نفس المشكلة فلن يخسر أحدنا بسبب الآخر لكنني أردت أن أنتقم،، أن أرد لنفسي كرامتها التي انتهكت وبكل جرأة،،

بقيت مريضا لأسبوع كامل ولم أستطع فيها مزاولة عملي وأوهمت أمي بأني مسافر لئلا اضطر لزيارتها فوضعي الحالي لا يسمح لي بمقابلة أحد أبدا ومع ذلك جاءت زوجتي مع شقيقها الأصغر للشقة ولم أحفل بهما ولم أكن لأفتح لهما الباب لولا أنها تمتلك مفتاحا.

جفلت حينما وجدتها أمامي فمن شدة شرودي لم أسمع صوت الباب وهو يفتح أو ويغلق وراءها قلت لها مهاجما: لماذا أتيت؟ قالت وقد استحوذت عليها المفاجأة: لماذا لا آتي؟ هل من المعقول أن أبقى في بيت أهلي كل هذه المدة وأنا أجهل السبب ولم أكن أعلم أنك موجود في المنزل فقد سألت والدتك لأطمئن عليك وأخبرتني أنك مسافر مع أن السفر ليس مبررا لعدم الإجابة على اتصالاتي) تعمدت أن أتركها تتحدث لتقول كل ما عندها لئلا تقاطعني عندما يحين دوري: نعم السفر ليس مبرراً، ولا يليق بشخص محترم أن يخدع فالخداع والغش من أسوأ الصفات ولا يمكن أن يقبله أيٌّ كان). وكان واضحا من نظراتها أنها لا تعي ما أرمي إليه، فانفجرتُ: من أنا لتخدعوني ومن أنتم؟ هل تعتقدون لأني بيد واحدة رضيت؟ بأقل مما يرضاه الآخرون؟ هل تعتقدون أن المشلول لا يهتم بموضوع الأبناء؟ رفعت يدي اليسرى موجها إصبع الاتهام بينما بقيت اليمنى لا تقوى على الاحتجاج: كان يجب أن أعلم بعدم قدرتك على إنجاب الأطفال؟ لا أن أظنك الزوجة المخلصة المضحية.

خيل إليَّ أنّ شيئاً من الارتياح غمر ملامحها المرتابة مما دعاني لألتفت بالكامل، بعد أن أمعنت النظر بها كان ذلك جليا بدت سعيدة كمن تخلص من عبء سر أو كمن بدت له المشكلة أبسط مما توقع

قالت بصوت منخفض وبنبرة مرح: ألم تكن تعلم بعدم قدرتي علة إنجاب الأطفال؟ أجبتها بصوت عالٍ لا يتناسب وصوتها: لا، كان يجب أن تخبروني، قالت بنفس النبرة: إذا ما هو سبب طلاقي في ظنك؟، تلعثمت ثم قلت مبررا: لم أكن لأنبش عن حياة أحد أو سبب طلاقه. قالت: ولم أكن أعلم أن أهلي لم يطلعوك على الحقيقة، وقبل أن أقحمها بسؤال أجابت وكأنها تعلم ما يدور في خلدي: وعندما وجدتك منهارا بسبب عقمك ظننتك ربما كان لديك أمل بالإنجاب إذا كان العقم من طرف واحد.

أصبحت مشوشا فعلا، هل كانت غلطتي عندما لم أسأل؟ أم كان يجب عليهم أن يخبروني بكل شيء؟ فهذا في الشرع، إذا لماذا هناك نظرة شرعية أليس ليكن كل طرف على بينة بما عليه الآخر؟ هل كان خطأ مشتركا.

وقررت مقابلة أخيها ذاك الذي ظننته يوما معجبا بي وكان باردا كالجليد ولم يظهر أيَّ تأثر باكتشافي بل قال بكل بجاحه: ألست عقيما أنت أيضا؟،، لم أرغب بيد يمنى سليمة كذلك اليوم الذي وددت فيه لو ألكمهُ بكلتا يدي: كان ذلك بعد الزواج بستة أشهر أما علمك بعقم أختك كان قبل الزواج أعتقد أنك تعرف الفرق،، بقي صامتا لبرهة قبل أن يقول: أليست يدك اليسرى مشلولة ويحتمل أن تورث هذا المرض لأبنائك إذن من الأفضل ألّا تنجب.

عجزت عن العثور على رد مناسب ولم يصدر مني رد فعل يشرح ما يعتمل في صدري من غيظ وحنق، قمت من مجلسه ورجلاي لا تكادان تحملاني من هول الصدمة وبقيت واقفا أنظر إليه أنتظر كلمة مناسبة تخرج من فمي لأختم بها علاقتي به: أسأل الله أن يحرق قلبك.

لقد مللت حياتي تماما، أبدو كمن يتسلق جبلا وقبل أن يبلغ قمته يسقط في الوادي،، أرهقني كثرة السقوط، إنني أحاول، أحاول بناء

حياتي من جديد دائما، أسعى للتغيير للأفضل، لكن هذا الأفضل لا يبدو أنه زارني حتى الآن!

***

فضلت اعتزال العالم لفترة، قد اعتزل فيها نفسي أيضا أعني كل ما أنا عليه قد يصنع ذلك جوا ملائما لاستقبال شخص آخر، شخص أحب أن أكونه، شخص هو أنا الجديد، مهما بدت محاولة يائسة في كل الأحوال لن أستطيع فعل شيءٍ إمّا الاستسلام أو المحاولة ولست أرغب في جعل مرض يدي المشلولة يتسلل إلى عقلي، على الأقل المحاولات تمنحني بعض التسلية،،

القرطاسية هو المكان الأفضل وإن كان لن يتيح لي الانعزال التام إلّا من بعض العابرين،، أصبحت أكثر التصاقا به وخاصة بعد عودة زوجتي للمنزل لم أشأ مقابلتها، ما زلت أجدني مكسورا وحين تجبر كسوري سأجد الثقة التي تمنحني القدرة على مقابلة الآخرين دون حرج،،

في الماضي إذا ما قلقت حيال حياتي كنت أُهدئ نفسي بأنه بعد الزواج وإنجاب الأطفال سيكون كل شيء على ما يرام، لكن الآن الأطفال لن يأتوا أبدا، هناك فراغ لا يمكن أن يمتلئ لست من يملك زمام حياته وليس هناك أحد على الإطلاق يملك ذلك إننا نعتقد أن الحياة ستسير بنا كما فعلت مع عامة الناس أو والدينا لكنها لا تفعل إنها تصنع قصة مختلفة مع بعضهم قصة إمّا يسمعها الآخرون وقد خامرتهم مشاعر الشفقة أو الإعجاب، وحتى الآن لم يستطع أحدهم أن ينظر إليَّ النظرة الثانية برغم كل ما أفعله، ببساطة هم ينظرون لما تفعله الأقدار معي، ليس ذنبي، ليس ذنبي في كل ما يحدث، لماذا لا أُعامَل كبطل في مسلسل يصارع أهوال حياته أليس هذا هو نموذج البطل في أفضل الأفلام، الشخص الذي يتألم!

هذا ماكنا نشاهده في أفلام الكرتون على الأقل، ماركو طفل فقير يبحث عن أمه الخادمة في بيوت الآخرين وسالي اليتيمة تخدم في المدرسة

كلهم كانوا يعانون، صحيح أن بعضهم نهايته سعيدة وأنا لم تأتِ نهايتي بعد وبالرغم من ذلك فأنا أخشى أن تكون كالبائس سوار العسل الذي لم يصل إلى أمه إلّا ميتة، ربما كان الأكثر واقعية

***

كان قد مر شهر وبينما كنت أنتظر الشفاء، اتسع الجرح وأظهر ألما لم أره يوما لكن شدة نبضه في صدري أخبرتني بوجوده عميقا وكأنني خبأته في نفسي عن نفسي

شيء ما انفجر في لحظات انفجار حولني لشخص لا أعرفه، لا أعرف مشاعره!، ربما الفطرة التي خلقنا عليها

كانا يتجولان بصخب في القرطاسية حين صادفتهما، لم يرتطما بساقي فحسب بل بقلبي الذي اضطرب،

توأمان متشابهان جدا ولا غرابة أن ألبستهما أمهما ملابس بلونين مختلفين كانا ما يزالان يجريان ولم يعقهما جسدي بعد الارتطام به عن النهوض والانحراف ليكملا طريقهما، لحقتهما دون أن أنوي إيقافهما،

شعرت وكأن القرطاسية انتقلت في لحظات وجودهما للنعيم، كل شيء بدا مبهجا وبقدره كان عكسه حين خرجا، أسرعت خلفهما ودون وعي، لا أستطيع ذكر ما فعلته لآني لا أذكره حقا كل ما أذكره أنني أمسكتهما وقبلتهما

واللحظة التي عاد لي فيها وعيي حين قال العامل: ما لمشكلة؟ لماذا تبكي؟

أدركت حينها أن عينيَّ أرسلتا دمعهما دون إذن

***

اتصالات أمي المتكررة لم تسمح لي بتنفيذ خطة الانعزال مع محاولتي ادِّعاء السفر وهذا غباء مني، فالقرطاسية تتوسط الطريق بين منازل بعض إخوتي ومنزل العائلة ولن يصعب عليهم اكتشاف وجودي في المحل كجثة مكنها التحنيط من الجلوس منتصبة وجدت نفسي أجلس بين أهلي، فاقدا الشهية لكل شيء حتى التنفس أفكر أحيانا أن أزهد فيه

ردودي ظهر فيها البرود مع محاولات أمي لحثي على الكلام بكثرة الأسئلة، بينما أُخرج الكلمات وكأنني أخشى عليها

- لماذا لا تتكلم؟ كأنك مجبور على الجلوس معنا

- متعب قليلا

- هل كنت في يوم غيرَ ذلك؟، منذ ولدت وأنت متعب

-!

- ليس لك حظ في هذه الدنيا، الله يعوضك

-!

***

أفكر،، إذا لم يكن لي حظ فلماذا أسعى؟!، لم يُخلق لي حظ لأحصل عليه وهذا ما يبرر وصولي لأبواب مغلقة غالبا، كُتب لعمري أن يمضي في شيخوخته سريعا، ولا يولد فيه عمر جديد لطفل يبعث الشباب فيها،،

في الآونة الأخيرة أُصِبت بنوع من الإدمان الفكري إذا صح تسميته بذلك، أفكر في الملابس الصغيرة واللُعب والمناغاة والبكاء الطفولي والحبو والضحك بلا أسنان وكل ما يتعلق بما ندعوه طفلا، لكني أبقيته سرا فهي ليست مشكلة قابلة للعلاج ليشاركني فيها الآخرون، لكن تصرفاتي قد تشي بتفكيري فأنا لا أقاوم مشهد لأطفال في التلفاز دون أن أسرح بفكري فيه، وكذلك كنت ظهر ذلك اليوم حين تنبهت لنظرات زوجتي كانت مستفسرة ولم أكن مستعدا لأمنحها الفرصة لتنطق، بقيت صامتا

– ما شاء الله، الله يحفظهم

مقدمة لطيفة منها لابتداء الحديث

–،،،،،

– سبحان الله هذا يشبه ولد أختي نورة (يا زينه)، يقولون إنه يشبهني، الله يرزقنا بأجمل منه؟ استرسلت في كلامها وكأنها تسمع عبارات تعمدت أن تحفظها منذ وقت

وحانت مني التفاتة حادة، أخفضت رأسها ثم قالت وكأنها تجيب عن استغرابي: الله كريم

أمسكت بجهاز التحكم ورحت أقلب قنوات التلفاز دون أن أنطق بكلمة، بات إخراج الحروف ثقيلا!

لم أضطر للبقاء على ذلك الحال مدة طويلة حيث رفع أذان العصر ووجدتها فرصة سانحة للهروب إلى الصلاة ثم المحل مباشرة وإن كان الوقت مبكرا

جلست في كرسي المحاسب وأخرجت الجوال، هناك رسالة حديثة من زوجتي على الواتس أب

لم تكن تلك عادتها!، فتحتها على عجل:

- أريد أن أكلمك في موضوع، وبصراحة خفت أن تغضب لذلك فضلت إرسال رسالة بدل المواجهة فإذا لم يعجبك الموضوع انساه،،،

بما أنه مكتوب علينا العقم وحرمنا من نعمة الأطفال، فما رأيك أن نتبنى طفلا من دار الأيتام يكون سعادة لنا ونكون سعادة له، فكر في الموضوع أرجوك ما دمنا في قوة ونستطيع تربية الأطفال.....

وكثير من الرجاء الكثير من الرجاء حوته رسالتها لألبي طلبها!،

هذه المرأة كم كانت تعاني وكنت أظن أني فقط من يعاني وأنا الرجل!

هل هذا ماكنت تحاول لفت نظري إليه أثناء مشاهدة التلفاز وأنا الغبي ماذا كنت أظن؟

أظن أني أعشق الأطفال فقط دون أدنى فكرة في إمكانية الحصول عليهم

تبدو فكرة جريئة

هل تراني أستطيع جلب طفل ما ليعيش معي وأحبه كابني ويحبني كأبيه؟

شعرت بنشوة عابرة والكثير من الخوف فأنا أجهل تماما كل ما يتعلق بتربية طفل ليس طفلك، طفل لا علاقة لك به البته، ولا علاقة له بأحد أيضا.

طفل محروم وأب محروم، أقصد شخصاً مؤهلاً ليكون أباً أو في سن الأبوة لكنه محروم

ربما وُجِد أحدهما للأخر

طفل يحقق حلمه بترديد لفظ (بابا) يركض بلهفة ليقع في أحضان رجل، يجد أخيرا من يسند ضعف قوته

أخشى أخيرا أنني قررت أن أكون مخرجا دراميا.

- يوجد ألوان زجاج؟

- يوجد

***

- انفجار وقع في سوق بحي الشعب في شمال بغداد أسفر عن وفاة ٧٩ شخصاً من بينهم طفل رضيع

يبدو أن موت البشر لم يعد بتلك الأهمية ربما في بغداد بالذات! هذه الأرقام الكبيرة لا تبدو مفزعة إذا كانت في بغداد فتلك الأرض قد تحتجُّ إن لم يدفن في جوفها كل يوم إنسان.

هناك ٧٩ عزاء في بغداد في وقت واحد بالإضافة لعزاء وفيات أمس والذي قبله، قد يكتفون بثلاثة أيام للعزاء ليتمكنوا من تبديل الملابس السوداء وغسلها قبل العزاء التالي

من يهتم! كلها أسماء غير مهمة ولذلك هي مجهولة ولم يحظَ أحدهم بذكر معلومة عنه عدا الرضيع

رفعت ساقي بحركة سريعة كإجراء وقائي ليتسنى لطفلي الذي هوى بجسده فجأة إثر اصطدام قدمه بمكعبات اللعب المتناثرة ليتشبث بها قبل أن ينزل بهدوء إلى الأرض ملتقطا أنفاسه العزيزة

كان ذلك مغرياً جدا لأحتضنه بشفتيه المزمومتين كوضع مناسب لما قبل البكاء، أسندت رأسه الصغير على صدري بينما شعره المتطاير يعبث بشعر لحيتي، هدأت دقات قلبه المتسارعة وتلاشت رغبة البكاء بينما احتلتني حين نظرت إلى عينيه مباشرة، (يمتلك عينين كعينيك) أطلقت سما هذه الملاحظة لتكون كافية كسبب لتبنيه، (طفل يشبه أحدنا بشكل عام أو يجمع صفات من كلانا حتى لا يشعر بأنه مختلف عن عائلته) هذا مقياس سما للبحث عن طفل للتبني وحصلنا على عبودي.

شعرت برعب هز أوصالي وأنا أفكر أني قد أفقده يوما حينها لن يهتم العالم ولن يذكر حتى بالأخبار!

صغيري هو حياتي

وحياتي هي صغيري

أحب أحيانا أن يبتعد عني مسافه لا تسمح له بلمسي حتى إذا اضطر لينادي قال (بابا)

أحببت هذا الاسم أكثر من اسمي: بابا، أبو عبودي، أبو عبدالله

استولى عليَّ بالكامل واستمتعت أنا بذلك

***

التقط جواله الذي راح يرن بشكل متواصل وهو يشْتُم كل فاقد للذوق كما يسميه، من أولئك الذي لا يراعون في اتصالهم الوقت المناسب،، رفض المكالمة عندما وجد الرقم غير مسجل. ويبدو أن المتصل مصر على إجراء المكالمة حين أعاد الاتصال ونغمة الرنين تعلو مره أخرى بشكل مستفز هذه المرة، دعا عبدالرحمن أن يكون الاتصال مهماً ويستحق كل هذا الإزعاج:

- أهلا

- أهلا أبا هيثم

أُجفل هذا الأخير عند سماع صوت المتصل، فكر حينها كان يجب أن أحتفظ برقمه حتى لا أرد مطلقا على اتصالاته

- خيراً إن شاء الله

- لا لم أتوقع منك هذا الرد و(شدعوى) يا بو هيثم أنا ولد عمك وزوج أختك السابق هههههه

- هل تعلم كم الساعة الآن؟ الظهر، ألم تجد وقتاً أفضل من هذا لتتصل؟

إذا كان هناك شيء مهم وإلّا اتركني أرتاح

- بما أنك مستعجل إلى هذا الحد سأختصر عليك الكلام، أريد حقي.

من يرى عبدالرحمن هذه اللحظة سيعلم أن الخطب جلل

- أيّ حق؟ حقك وأعطيناك بل أخذت أكثر من حقك (يا لي ما تخاف الله)

- أنا من لا يخاف الله! وأنت! الأخ الحريص على ستر أخته ويستغل ولد عمه الصغير ويخدعه بتزويجه من أخته المغتصبة

- يا حقير نحن لم نخدعك أنت تعرف كل شيء ورأيته بعينك ولو أن عينك لم ترَ لم نضطر لنهين ابنتنا ونزوجها لك ولا أستغرب إن كنت من أرسل سائقكم القذر لبيتنا

- ولماذا لا يكون هذا اتفاق بين ابنتكم المصونة و،،،

قاطعه عبدالرحمن بصوت يكاد يختنق من فرط الغضب

- تقذفنا يا،،،،

- اسمع اسمع مللت من تكرار هذا الكلام كل مرة وينتهي بأن تسلم لي حقي، رجاء لا تتعبني ولا تتعب نفسك حسابي عندك وأتوقع أن يصلني المبلغ قبل المساء

استغل الهدوء الذي لاحظه من الطرف الآخر فاكمل مستهترا: أنا المسكين الذي شوهت سمعته طلق ابنة عمه الصغيرة بعد شهرين فقط من الزواج أصبحت أنا الشرير الذي يكرهه الناس هل هذا يرضيك يا بو هيثم.

وأطلق ضحكاته البغيضة جدا قبل أن يستقبل أيَّ رد فعل قد لا يعجبه.

***

حل المساء وحل معه الغضب على ريان بينما يقبض على جواله الذي لم تصله أيُّ رسالة تحويل

كان يجب أن يتوقع حدوث ذلك فلا يتصور من أحدهم أن يصبر على دفع آلاف الريالات لشهور

ريان المقتنع تماما بمظلوميته واستغلال صغر سنه وطيبة قلبه ليستر ابنة عمه ثم يفاجأ بمن يتهمه بدفن شبابها فمن سيتقدم للزواج من مطلقة وإن كانت صغيرة غير كبار السن؟

ماذا كان يتوقع أن يعامل كبطل؟! في حين أن الجميع يجهل حقيقة القصة؟

إذا على من يعلم بها أن يعترف له بالفضل لا أن يجافيه ليكمل التمثيلية كأخٍ غاضب من طلاق أخته ويرفض كل ماله صلة بالزوج السابق وإن كان ابن عمه ويجعل عائلته تسخط عليه لأنه تسبب بقطع الرحم!

(لن يجعل سواد الدنيا من نصيبه هو فقط) أقسم على ذلك

***

في عيني سلمان تزهو الدنيا أخيرا ويقرر أن يسافر بعائلته الصغيرة التي أحبها رغم كل شيء

خرج من المنزل يحمل حقائب السفر إلى السيارة وقبل أن يهم بإغلاق الغطاء الخلفي للسيارة

سمع نغمة رسالة تصل إلى جواله

أخرج الجوال

فتح الرسالة التي كانت من مجهول

حدق في الرسالة لم يفهم شيئاً

اعتقد أن الرسالة قد وصلته بالخطأ خاصة وأن الرقم مجهول

أقنع نفسه بذلك

حروف تلك الرسالة لا يجب أن يقرأها مرة أخرى

حاول إغلاق الجوال بسرعة لكنه لمح اسمه

المرسل ذكر اسمه الثلاثي لا مجال للخطأ. هو المقصود وقبل أن يستوعب محتواها تماما، جرى يحاول الوصول لمقعد السيارة قبل أن يسقط

لكن شيئاً ما يثقل أنفاسه، يخنقه، يعبث بقدرته على التركيز

وصل أخيرا لمقعد السيارة

ذاك الذي كان يثقله جعل منه الآن مهتاجا لا ينظر لا يسمع

يجهل أين هو بالضبط؟ في الواقع أم الحلم أم كابوسٌ يكتم أنفاسه أو ربما مزحة سخيفة

نعم قد تكون مزحة سخيفة لماذا لم يفكر بذلك

حاول أن يبتسم وأن يبكي لكن أنّى له ذلك لم يقدر على أيٍّ منهما

حاول تشغيل سيارته والانطلاق، الانطلاق إلى إيٍّ مكان لا يحمل عنوان الواقع

ولا يعلم هل هذا ما يقوم به بالضبط؟ وبالشكل الصحيح؟ أعصابه تحمل الكثير من الأوامر

توقفت السيارة فجأة

سمع ضجيجاً وصراخاً

أحدهم تقدم للسيارة وفتح الباب وأخرجه

بدا ذاك الرجل غاضبا ويشير إلى الأمام حيث امرأة وطفل ملقيان على الأرض

وفقد وعيه.

***

ركن سيارته في الموقف المعتاد أمام المنزل، لاحظ وجود رجلين في سيارة عند المنزل المقابل

بينما يتجه للمنزل سمع أحدهما يقول له وقد اقتربا منه أنت ريان؟

***

أضواء خافته تفتقر للطمأنينة وتهمس بوحشية لا علاقة لي بالأفراح

- حسبي الله عليهم أخذوا مني ما يريدون ورموني بالسجن، يفترض أن يكونوا هنا بدلاً مني

مللت من صراخه وتذمره منذ دخولنا للسجن منذ أسبوع وهو على هذه الحال يشتم كل شيءٍ حتى نفسه

إنه يتطلع للخروج من هنا في أسرع وقت بينما أنا لا أرجو شيئاً كرجائي من المحكمة أن تقضي عليَّ بالقصاص مقابل دهسي لابني، حتى بعد أن ذكر الشهود حالتي العقلية أثناء الحادث بقيت صامتا رجاء ألّا يخفف الحكم

لا أستطيع حتى مواجهة زوجتي المصابة بسببي، لقد قتلت طفلها أيضا ولا أستطيع كذلك إخبارهم سبب تخبطي واختلالي فلست بالرجل الذي يتحدث عن عرضه وهذا الشقي الذي قُبِض عليه بتهمة الابتزاز يعتقد أننا متساويان فكلانا مخدوع كما يردد بالرغم من أنه السبب في كل ما أنا فيه الآن

لو أنه تم القبض عليه قبل أن يرسل تلك الرسالة

كيف تجرأ ليسألني إن كنت أخبرت أحدهم بأمر الرسالة أم لا؟!

في تلك اللحظة فقط عرفت أنه صاحبها

توقفت مذهولا أمام وقاحته، كل ما كان يخشاه أن تزداد فترة سجنه بسبب الرسالة

وليبرر فعلته قال بأنه لم يسمح لنفسه أن يبقى صامتا بينما يراني مخدوعا!

هل كان يعتقد أن على أحدهم أن يصرح للخاطب بعدم عذرية ابنته

دمر حياتي بعد أن اعتقدت أنها استقامت أخيرا

أعتقد أحيانا أن حظي اقتنع بلقبي الذي أطلقته عليَّ أمي (المسيكين)

حاولت ما بوسعي أن أصنع الفرح لعائلتي ولمن حولي لكنهم يرفضون أن يروا مني غير حظي التعيس

ويدي المشلولة وكأنها من يحرك أقداري رغم عجزها عن تحريك نفسها ،ربما يعتقدون أن التعيس لا يصنع فرحا

***

# لو كنت يتيما

- على الأقل لن اضطر لمقابلتك

- هل تجدها ميزة؟

- لابد أن أجدها كذلك؟

- ولم؟

- تسألني وكأنك غريب عن المجتمع!

- حسنا

قل لي يا عاصم ما الأمنية التي تتمناها الآن؟

- أمتلك سيارة

- سيارة!؟

- نعم

- ولماذا السيارة؟

- هل هذا سؤال منطقي!؟

أجاب بنظرة ثابتة: بالتأكيد

قابلها عاصم بنظرة المشفق على الغبي الذي أمامه منذ ثلاثة أيام

وأسئلته الغبية لا تنتهي: ألا ترى!،، أنا الكبير هنا وعليَّ القيام بقضاء حاجات أُسرتي

صمت ثم قال: جواب غير مقنع

ثم أردف بحذر كمن يرمي سنارته ليجرب الطعم: وسيارة والدك؟

- نبرة بلهاء: وأين هي؟

- هل تعرف؟

- لو كنت أعرف لأخذتها

- ماذا تعني بأخذتها؟

يقف عاصم بغضب ويمد يده مهددا: ألا تنوي التوقف عن أسئلتك الغبية؟

إن كنت لا تنوي أخبرني لئلا أكمل الحديث معك

- أنا هنا لمساعدتك ومساعدة أسرتك

- تساعدني في ماذا؟ أنا في أفضل أحوالي منذ ولدت

نظر لساعته كمحاولة لصنع لحظة درامية: في هذه الساعة من كل يوم أقضي الوقت مع أطفالي

لكن لأجلك أنت وأسرتك أنا هنا الآن.

تراجع للخلف حتى استرخى تماما في جلسته ليُشعِر من أمامه كم يفتقد الجو العائلي؟

في هذه اللحظة بالذات بالقرب من شاب مازال يقف غاضبا ومحتجا،، وبنظرة خاطفة لمح وجه عاصم الذي بدا محرجا

سار بضع خطوات ثم اختار الكرسي الأبعد ليجلس عليه

لوح بيده ليقول شيئا لكن هذا الشيء ربما لم يتم صياغته بشكل جيد مما أبقى يده في حالة قلق وقال بصوت لا يكاد يسمع: اذهب لأطفالك

- نحن الأخصائيين الاجتماعيين لا نعيش لأنفسنا أو لأسرنا فقط، توقف قليلا ليمنح كلماته التالية المساحة الأكبر للتأثير:

نحن نُسخِّر حياتنا لمساعدة الجميع، وبناء المجتمع

- اذهب لبناء عائلتك هذا أفضل لك،،

- وأنت؟

أدار رأسه بعنف باتجاه الأخصائي أحمد

- هل اعتدت الجلوس مع والدك؟

خفض رأسه دون أن يجيب

فأكمل الأستاذ أحمد: يبدو أنك تفتقده

-،،،،،،

- هل يمكن أن تحدثني عنه

- أنا لا أفتقده

في وقت متأخر وبدون توقيت محدد دخل عاصم إلى المنزل.

عاصم شاب مربوع الجسم تمنى لو كان بإمكان جسده الاستطالة أكثر ربما أكسبته بعض الهيبة التي يحتاجها كما يعتقد.

رغم إعجابه بعرض كتفيه ، وعندما ينظر إلى المرآة يحب أن يطيل النظر إليهما بدلا من وجهه الذي يحمل سحنة طفولية تقلل من جدية حاجبيه المعقودين إذا ما احتاج إلى لغة الجسد للتعبير عن موقف ما.

شاب يمارس حياته كما يجب ، وفجأة يتحول إلى شخص غير مبالٍ في حال غياب والده وكأنه وجد متنفسا ليتحرر من كل شيء حتى المبادئ التي يؤمن بها ومبدؤه الوحيد حينها إذا غاب القط العب يا فأر ، غير أنه حتى الآن لم يقرض إلّا ذاته!

شاب غير مسؤول كما تصفه أمه بإلحاح عند كل الجهات التي تدخلت في القضية رجاء أن يَدَعوا ابنها وشأنه

هوى بجسده على فراشه

فجأة انتصب واقفا

نظر خلفه

كان قد وقع على دفتر وضعه بإهمال على السرير

وهو غير متأكد أنه سيكتب فيه كما طلب منه الأستاذ أحمد

رفع الدفتر وألقى به بعيدا

واسترخى،،

***

- عاصم عاصم

الصوت الذي يخيفه يستدعيه،

وتدور الأحداث سريعا في رأسه لعله يصطاد خطأ قد ارتكبه

ويعد للسؤال جوابا،،

هذه هي المرحلة الأقسى فكريا والتي يمر بها مرارا

حتى مع محاولته لتغيير نمط تفكيره بحيث يتطابق وتفكير والده

- الباحث عن الزلة، ليس هذا فقط بل هو من يوقعك فيها ليعاقبك

قالها عاصم في نفسه

- تعال بسرعة، ألا تستطيع أن تسرع في حركتك يا كسول

يقترب عاصم من والده في وجل

يمد والد عاصم يده، فيخفض عاصم رأسه بينما ترتفع يديه كحركة وقائية يحمي بها حواسه الرقيقة وأذنه التي بالكاد شفيت من الالتهابات جراء الصفعات المتتالية غيرِ المبالية

- أيها الدجاجة،،

يزم شفتيه اشمئزازا ويكمل شتائمه التي يصوغها على هيئة جمل خبرية أوِ استفهامية: خائف ، دائما خائف، كيف ستصبح رجلا! هاه؟

لابد أنك ارتكبت خطأ وإلّا لماذا كل هذا الخوف؟

بحركة سريعة لم يتدرب عاصم على اتقائها يمسك والده بقميصه ويصرخ في وجهه متجاهلا أنفاسه الكريهة: ماذا فعلت؟

- لم أفعل شيئاً، والله العظيم لم أفعل شيئاً

- امسك

ينظر عاصم ليد والده الممتدة ينتبه أخيرا أنها تقبض على أوراق نقدية

- اشتر عصير برتقال النوع الذي أفضله

يزمجر فجأة: تعرفه؟

- نعم أعرفه

- أتمنى حقا أنك تعرفه

يحاول عاصم إنهاء اللقاء الذي أخذ من الوقت والشتائم أكثر مما ينبغي باستدارته تجاه الباب وطرااااخ

يصل للمحل، يخرج العصير من الثلاجة هذا هو النوع الذي يفضله والده. وضعه على طاوله المحاسب ومد الخمس ريالات

- الا تريد شيئا بنصف ريال؟

- لا

أمسك العامل بكيس وضع فيه العصير وعلكة!

- ما هذا؟ يتبقى ريال

- لم يتبقَّ شيء، وضعت لك العلكة،،، ويفتح الكيس: انظر

- لا أريد العلكة يا غبي

- قلت لك هل ستشتري بنصف ريال قلت لا وليس لدي نصف ريال لأرجعه لك

- بكم العصير؟ بريالين صحيح!؟

- لا ، زاد سعره، الآن بريالين ونصف

- متأكد!؟

- نعم أنا متأكد، أنت لا تعرف شيئاً

- صه

- أتمنى لو والدك موجود الآن ليضربك

- صه ألا تستطيع أن تصمت!

طرااااخ

أخيرا وصل إلى المرحلة التي يخشاها وسينتهي منها بدل أن يعيش قلق انتظارها

ها هو الآن يتلقى اللكمات من يد والده كما تمنى العامل الغبي، لكنه على الأقل لا يراه

- أنت سارق، منذ مدة وأنا أشك فيك، دائما أشتري العصير بريالين والآن تخبرني أن سعره زاد!

بالأمس فقط اشتريته بنفس السعر

يرتفع صوته أكثر ويزداد خشونة: وأيضا تصل بك الجرأة لتضع علكة، ألا تخجل!؟

تعبت من ضربك وتأديبك.

ينطق عاصم أخيرا: هذا ما قاله العامل، ناقشته لكنه أصر

- لأنك غبي، واستغل غباءَك

توعده بالضرب إن كان خدعه حقا: وأنا متأكد أنني سأعود وأضربك

لكنه عاد من المحل فلم يضربه ودون أن يعتذر انقلب على الجانب الأيسر لكن النداء الذي يحمل اسمه أخرجه من ذكرياته المزعجة

واستدار ناحية الباب ثم انتصب واقفا في حين اقترب الصوت أكثر وتبين أنه صوت أمه

***

السلام عليكم ورحمة الله

السلام عليكم ورحمة الله

بعد انتهاء الصلاة تزاحمت الأقدام عند الباب للمغادرة ولحسن حظ عاصم وقد لا يكون كذلك بالنسبة لعمه يوسف الذي تصادف وجود نعليهما في موضعين متقاربين

- عم يوسف،، أهلا

رفع يوسف رأسه وعندما لم يعجبه صاحب الصوت أخفض رأسه وتشاغل بنعاله:

- أهلا أهلا يا عاصم كيف حالك؟

- الحمد لله، لم أرك منذ مدة

شعور الفَرِح العاجز عن الظهور يتخلل نظرات عاصم الشغوفة متجاهلا رد فعل عمه ويستمر:

- هل أنت مشغول اليوم؟،، وقبل أن يتلقى جوابا: ما رأيك أن نخرج، أشتاق للخروج معك، ملـ،،،

- عاصم أنا مشغول إن شاء الله في المرة القادمة

- لكن يا عم أبي غير موجود وهذه فرصة

وعلى غير المتوقع قال العم يوسف: والدك قد يظهر في أيِّ لحظة وأنا لا أريد المشاكل،، مع السلامة

وكأن الأيام تستمتع باجترار أحداث الماضي لتحافظ على الحقد المدفون في قلب عاصم حقد اسمه (أبي)

- الجميع يخشاه ويتفادى الاحتكاك معه وأنا ماذا عني؟ أنا الشاب الصغير عليَّ أن أواجهه لوحدي

أخفض رأسه ينظر لموضع نعله، دس قدمه اليمنى بغضب: كان يمكن أن أستمتع بالخروج مع عمي وأبنائه. وليس من الإنصاف أن

أغضب من رد فعل عمي بعد أن قال له أبي: هؤلاء أبنائي ولا أحب أن يخرجوا كثيرا من البيت بدوني!

- لكني عمهم وأحرص عليهم كما تحرص

- جزاك الله خيراً ، قالها أبو عاصم باستهتار وأكمل: لكن لا تشغل نفسك بهم هم لديهم أبٌ يهتم بهم، أتمنى أن تهتم بنفسك ولا تتدخل في حياة غيرك.

- أبو عاصم: أردت إسعاد أبنائك وإزاحة هذا الحمل عنك وتراني قد تدخلت!

- لم أطلب منك إسعاد أبنائي ولم أشتكِ من أيَّ حمل، أنت فقط لم تجد شاغلا إلّا تجميع الأطفال والخروج بهم

أراد العم يوسف أن يقول شيئا فاكتفى بضرب كلتا يديه بجانبيه، ولم يجرؤ بعدها على الاقتراب من أبناء أخيهِ أبي عاصم

فجأة يتوقف عاصم ويضرب بقدمه الأرض: ليته غير موجود، على الأقل لم أكن لأحرم من اهتمام الآخرين بحجة وجوده.

كان يوسف قد تجاوز الشارع الأول إلى الثاني حيث سيارته حين صرخ عاصم: أرجو الله ألّا يعود

وفي عينيه إصرار من نوع حاد،

التفت يوسف لمصدر الصوت الذي يعلم يقينا أنه عاصم لكن سيارة قادمة عاجلته فاستدار راكضا لسيارته

وهذا لم يمنعه من أن يلتفت مجددا حيث الغاضب الذي مازال يحتفظ بهيئته الجادة، وضع أربعاً من أصابعه أمام فمه ليحثه على السكوت فإصبع واحد ربما وجده قاصرا عن أداء المعنى المطلوب، وعاصم على حاله حتى رأى عمه يلوح بالجوال: كلمني

شيء من الارتياح بدا على ملامحه.

***

- أهلا عاصم، كيف حالك؟

صوت الأخصائي الأستاذ أحمد وكالعادة يبدو صوته بعيدا مع محاولته لرفعه وسط زحام السير، وهو لا يتصل مذكرا بالموعد إلّا وقد ركب سيارته فعلا

- بخير، كيف حالك؟

شيء من الصمت ثم

- اوه هذه المرة الأولى التي تسألني فيها عن أخباري! ماذا يحدث لابد من وجود أحداث مفرحة

يبتسم عاصم وهو يتذكر اللقاء الأخير الذي جمعه بالشخص الذي لم يتوقع أن يظهر في حياته ، كان اليُسْرَ الذي صاحب عُسْر ظروفه، العزاء بعد أن ماتت سنواته الأولى بيد الإهمال ليمنحه يدا من حنان تحتضن طفولته التي ما زالت تعيش في أعماقه لكنها تبكي كنَوْح الكبار، كان كالنسيم الذي تسلل ليحيي أنفاسه المختنقة ويوقظ فتوته المتهالكة لكنه أجاب بينما يتخيل وجه الأستاذ المتفاجئ: نوعا ما

- الحمد لله، الله يديم الأفراح

تبادلا بعض الأحاديث عن الجو والأحوال المحلية في محاولة من طرف واحد للمحافظة على جو الارتياح الذي ساد ولأول مرة منذ لقائهما منذ أسبوع.

- ألا ترغب أن تفرحنا معك؟

- ماذا تقصد؟

- اليوم أنت مختلف

رد بنظرة تحمل في طياتها الارتياب: خاص

- أها

وخطوة أخرى للاستدراج: ربما تخص والدك!

لم تكن خطوة جيدة فتجهم عاصم:

- هل ممكن أن نتحدث دون أن تأتي على ذكره!

- لكنه والدك ويهمنا أمره كما يهمك

- لكنه لا يهمني

- هل تأتي لتساعدني في تجاوز الماضي كما تدعي أم تبحث عن أبي؟

لكن الأستاذ يكمل بإصرار: ما لذي حدث له؟ ألا تريد أن تنتقم من قاتل والدك؟

- لا والله سأشكره

- إذاً هل تعتقد أنه قتل؟

- أتمنى إلّا يعود

- دعنا من الأماني، أنا أتحدث عن ما تعتقد

- كيف لي أن أعرف؟ هل أنت مجنون؟

- عاصم، أنا أحاول أن أحميك، ساعدني أرجوك

- تحميني من ماذا؟ كنت في خطر حتى رحل

تقدم برأسه إلى الأمام وحاول أن يمنح نظرته توتر الخائف بينما يشبك يديه ويحركهما بعنف: فكر ، قد يكون هناك من يتربص بكم ، ربما يستغل سوء علاقتك بأبيك ليوقع بك

قال هذا دون اقتناع شخصي به لكنه يحاول أن يبقي الأمور تحت سيطرته حتى يحقق ما عزم عليه، وفتى بهذا الطيش قد يعجبه السياق الإجرامي للأحداث فما لمشكلة إن أقحمها، أحيانا الغاية تبرر الوسيلة، هكذا أعتقد.

وعاد ليقول: إن كنت تعرف أي شيء عن والدك أخبرني.

حصل على رد وإن لم يرقَ لطموحه: لا يجمعني به أي شيء إلّا أنه شخص قيل لي إنه والدي ، والد بيولوجي فقط لا أعرف شيئاً آخر

سكت قليلا قبل أن يكمل وسط نظرات الأستاذ أحمد المتسائلة: بل أعتقد أنني أعرف شيئاً آخر عنه

شخص قاسٍ وعنيف وبلا رحمة، لم أحبه قط

واختار أن يختم بصوت أقرب للهمس: تبادلنا هذا الشعور

- لا يوجد أبٌ يكره ابنه

هذه المرة كان عاصم يجيب صائحا تتدافع الكلمات في فهمه وكأن الفرصة المناسبة قد أتت أخيرا ليطلق الحقيقة التي يؤمن بها:

كلكم تقولون ذلك، وتقولون أيضاً لا يوجد ابن يكره أباه، هل تعتقد ذلك؟ هل عشت مشاعر جميع الناس تجاه ابنائهم أو آبائهم، انظر إليَّ أنا أكره والدي ولا أحد يصدق ذلك حتى صديقي حاتم بالرغم من كل ما يعرفه وما رآه من والدي

إلّا أنه يراني مخطئا وأعتقد أنه قد وشى بي عند الشرطة يظن أني من ألحقَ الأذى بوالدي وأني من كان سبب اختفائه، أحيانا لا ألومه، أنا لا أصدق ذلك أحيانا لأني لا أرغب أن أكون مختلفا عن البقية

أود الشعور كما يشعر الآخرون تجاه والديهم،

اندفع فجأة يتكلم بحماس أكبر كمن وجد ضالته: هل تعرف لماذا مشاعري مضطربة؟ لست متأكدا

يقول ذلك بينما يقلب عينيه التائهتين والأستاذ أحمد يتابع صمته: قد لا يكون والدي الحقيقي لذلك لا نتصرف كأبٍ وابنه

عندما أصبح عمري خمس سنوات فجأة اكتشفت أنّ لي عائلة

- لم أفهم!

- حتى أنا لم أفهم اكتفيت بجواب أمي أن الفقر كان سبب ذلك!

***

أستيقظ عاصم متأخرا أكثر من المعتاد وكأنه بنومه يفر بعينيه عن وجه العالم الكئيب ، حوار البارحة مع الأخصائي فتح ملفا من الماضي كان قد قرر أن يتجاهله

يوشك النهار أن ينقضي لولا اتصال عمه يوسف ، فقفز من فراشه مستبشرا حيث أخبره العم أنه في طريقه لاصطحابه معه.

ارتدى قميصا أسود اللون وسروالا من الجينز، وقف أمام المرآة، أثنى على هيئته بابتسامة، يجد ملامح لا تشي بالواقع بل تحسن إخفائه ، وفي نفسه حمد الله أنه لم يجمع عليه هم القلب والقالب.

اتصال قصير من العم يوسف يخبره بوصوله ، حينها تذكر أن عمه لا يعجب بالشباب الذين لا يرتدون الثوب السعودي ، ويجب عليه أن يظهر كشاب ناضج أمام عمه خاصة بعد الموقف الأخير الذي بدا فيه كمجنون يصرخ في الشارع.

أسرع في تبديل ملابسه مما سمح لشعره في التحرك بشكل فوضوي فوق رأسه ، وحين كرر العم يوسف الاتصال كان عاصم قد فتح باب المنزل.

يفتح باب السيارة بينما ينشغل في تسريح شعره بيده: السلام عليكم

- وعليكم السلام.

وانطلقا

- لا بد أنك تعرف لماذا أصطحبك معي الآن؟

- لنتسلى.

قالها عاصم غير موقن بها بعد سؤال عمه يوسف

- هذا ليس وقته

صمتٌ من الطرفين قطعه يوسف: أريدك في موضوع

صرخ عاصم وقد استدار بكامل جذعه باتجاه السائق: يا الله موضوع ،موضوع، موضوع لقد مللت

أرجوك أعدني للمنزل لدي من المواضيع ما يكفي

وعلى غير العادة صرخ يوسف: كم عمرك الآن؟ هاه؟ ١٧ عاما

لقد كبرت بما يكفي لتقوم بشؤون عائلتك شهر ونصف فقط من غياب والدك ومع ذلك تبدو غير مبالٍ تتصرف كشاب مدلل، انظر إلى جسدك المتلون من الضرب والصفع والركل

ولم تنضج ولا تعي حقيقة ما أنت فيه! لا ألوم والدك فيما كان يفعله بك. أراد أن يصنع منك رجلا لكن نصيبه ولد غير مسؤول.

أدرك يوسف أنه قال أكثر مما ينبغي وشعر بحرج أكبر مع صمت عاصم فتنحنح:

يا عاصم يا ولدي أنت تعرف كم أحبك وأعتبرك أحد أبنائي مع أنك أكبر من ذلك

ضحك بتكلف ليخفف من حدة التوتر: وأنا غضبت قليلا فقط لأني أريد مصلحتك أريدك رجلا.

نطق عاصم أخيرا لكن ببرود: لكن أبي لم يستطع كما تقول ثم أنت تحاول!

- يا عاصم الله يهديك أنت رجل لكن فيك بعض التهور ربما بسبب الظروف التي عشتها ، لا أعلم!

- هل انتهى الموضوع؟

مال يوسف بالسيارة إلى جانب الطريق وتوقف، حاول أن يستدير بكامل جسده ليواجه عاصم لكن جسده لا يتمتع بخفة تسمح له بذلك فاكتفى بتوجيه رأسه: أمك كلمتني

تجاهل نظرات عاصم التي قد يكون أحد معانيها الحمو الموت ، أو ربما لا تراني أمي رجلا، لتستعين بآخر؟! فأكمل حديثه: قالت بأنها في بعض الأحيان تستمع لحديثكما أنت وهذا الأخصائي الاجتماعي، حديثك فيه شيء من التهور وعدم التأدب عن والدك خشية أن تأخذ هيئة التحقيق عنك فكرة غير جيدة، في الحقيقة طلبت مني إلّا أخبرك بأنها من طلب ذلك وأن أتصرف وكأنه طلبي رفضتُ في البداية الفكرة برمتها، صمت قليلا.

استحثه عاصم: وما لذي غير رأيك؟

- عندما قابلتك، هل تتخيل شخصاً يصرخ في الشارع يصرح بكرهه لوالده المفقود ثم لا يشك فيه أحد!؟

- سأقتنع أن عليَّ محبة والدي ولكن بشرط؟

- ماذا؟

- هل هناك أبٌ يترك ابنه في المستشفى حتى يبلغ خمس سنوات؟ هل يحتاج أحدهم خمس سنوات ليشعر بمسؤوليته تجاه طفل كان هو سبب وجوده؟! ولم يكتفِ بهذا فقط بل يفخر بما فعله ويمن عليَّ بجلبه لي إلى المنزل،، ليته لم يفعل

أخفض العم رأسه في خجل ليتحاشى نظرات عاصم: هذا موضوع قديم

- مازال يعني لي الكثير

- ماذا تعرف عن السبب؟

- لا أعرف

- هل سألت والدتك ورفضت أن تجيبك؟

- أجابت

- بماذا؟

- أريد أن أسمعه منك

- لن ينفعك إن....

قاطعه عاصم: إذن لن أقبل بالنقاش

- عاصم افهمني قد يزعجك الجواب و....

رفع عاصم يديه وغطى بهما أذنيه: لا أريد أن أسمع أيَّ تبرير.

- لماذا لا تريد أن تفهم؟

- لأني لست رجلا!

- حاشاك حاشاك

وجد نفسه في وضع يصعب فيه المراوغة ، نظر لعاصم رأى في عينيه صرامة ربما هي الشيء الوحيد الذي ورثه من والده ، عندما يعزم على أمر لا يمكن أن يتنازل عنه: إذن اسمع،،

صمت قليلا ليرتب كلماته.

العودة إلى المنزل بعد صحبة العم يوسف لم تحمل بهجتها المعتادة كان لقاءً مثيراً للغبار،، غبار الماضي الحزين

سار بضع خطوات بينما تأخر عقله مسافة خارج واقعه يتلمس الحقيقة

***

لماذا قد يكتم أحدهم الحقيقة؟ في سبيل ماذا؟

اختلس النظر لأمه،، من عادة الأمهات تبسيط الأمور لأطفالهن، تراها خشيت من أن عقلي قد لا يستوعب الحقيقة؟

لكن أيّ حقيقة؟ من الذي يقول الحقيقة؟ هل يمكن أن يُصدق مشاحن؟

ولكن عمي!

بالرغم مما بينه وبين أبي من شحناء إلّا أنه يردد نفس القصة؟ القصة التي تنقذ أبي من أيِّ تفريط أو إهمال وتضعه في موقف الأب المحب الذي جار عليه الزمن وأجبرته الظروف ولم تترك له خيارا إلّا أن يهجر ابنه حتى يبلغ الخامسة!

ولو أنه ذكر لي الرواية الأخرى لأسرعت في تصديقه حتى لو أراد بذلك تشويه سمعة أبي فلن أستغربها منه بالرغم من طيبته فالقهر أحيانا يغلب، أنا شخصيا قد أفعل ذلك.

كان يسير في بطء شديد قد أثقله التفكير ، لكن صوت عمار شوش تركيزه حين صاح فجأة:

- ماذا كُتِب هنا؟

يشير للصفحة التي فتحها ليكمل رسمه و تلوينه

- أرِني،،

تنظر جنى إلى حيث أشار عمار ، وعندما قرأت اكتسى وجهها بحمرة الخجل لاطلاعها على خصوصيات الآخرين: يبدو أنه دفتر عاصم.

التفت الأخوان لعاصم الذي شاركهم الفعل قبل أن يتجه مباشرة للدفتر ويلتقطه

كانت قد أُلصقت ورقة ملاحظات صفراء أعلى الدفتر (الرجاء من ولي الأمر الكريم متابعة الطالب ومعالجة مشكلة تدني مستواه الدراسي وإلّا قد تضطر المدرسة لاتخاذ الإجراء المناسب)

أغلق الدفتر بغيظ وأدرك من نظرات أخته التي قد قرأت ما كتب ، أنَّ عليه أنْ يقول شيئا.

وماذا عساه يقول! إن أول حرف نطقه كان بعد أن وصل سن الخامسة أو كما يقول والده:

(ورثت غباءك من والدتك ماذا ستستفيد من الدراسة؟، لو تبيع الماء في الشوارع قد تكون مفيدا!)

لكنه قال:

- هذا عندما كنت صغيرا في الأول ابتدائي لم يدرسني أحد.

بادرت جنى: لماذا؟ أين أمي؟

- كانت مريضة

والتفت عائدا إلى طريقه الذي سيقوده إلى غرفته وسط مسامع أمه التي لم تنكر وهو لم يشك بصدق كلامه.

فأمه كانت حقا مريضة وقد تكون كذلك حتى الآن.

ترك المكان واتجه إلى غرفته بالدفتر وعمار يصيح فيه: أعد إلي الدفتر أريد أن أرسم

- خذ هذا ، مدت له جنى دفتراً آخر ليلهو به.

- هذا الدفتر قديم ، وقد ملأته كله ، لا توجد به صفحات فارغة لأرسم فيها.

بينما يحتج عمار كانت جنى تتصفح رسومات أخيها حين لاحظت أن رسوماته العائلية الأخيرة تفتقر لشيء ما!

***

دخل غرفته وأغلق الباب خلفه توقف قليلا وابتسم بسخرية بينما يعاود النظر للدفتر بين يديه

يذكر تماما كيف مُنع لمدة ثلاثة أيام متتالية من دخول الفصل حتى حضور ولي الأمر ، ويذكر ذاك الحوار الذي أُجبِر على سماعه:

- ألم يأتِ والده حتى الآن؟

- لا

- ولم يتصل؟

- لا أستغرب، فالذي سجله في المدرسة عمه أمّا والده فلم نره أبدا، قال ذلك وهو يلوح بيده وكأنه يحرك الهواء.

زمَّ الأستاذ شفتيه: هل أنتم متأكدون أن والده موجود؟

خفق قلب الصغير كمن يواجه تهمة

- موجود وغير موجود

- لو لم يكن موجودا لما اضطر المسكين للوقوف لإجبار والده للحضور.

***

كان صغيرا،، أصغر من أن يسمع حقيقة مؤلمة، فآثر الابتعاد إلى الحد الذي يتلاشى فيه صوت الشفقة. والآن ضَيِّق لا يقوى على اجترار الماضي وأحزانه المسمومة.

ذاك قلبي،، كان هذا أول ما دونه عاصم في دفتر الأخصائي.

***

أمسكت جنى بإحدى الصفحات وانتزعتها من الدفتر.

- ماذا ستفعلين بها

- سوف أصلحها

التقطت قلم الرصاص وبدأت ترسم وعمار يراقبها باهتمام.

رسمت شخصا يرتدي ثوبا ويضع على رأسه غترة ، وقبل أن تنهي رسمها رسمت له شاربا حرصت أن تجعله كثا.

استقامت في جلستها وهي تبتسم معلنة: انتهيت

نظر لها عمار مستفسرا.

شرحت جنى وهي تنقر على أصابعها: العائلة تتكون من أم وأب وأبناء.

اعترض: لكننا لسنا كذلك!

حدقت به وهي تحرك أصابعها فوق أذنها في إشارة تعني: مجنون!

دافع عمار عن نفسه: أين أبي؟ وهو يفتح ذراعيه على مصراعيهما

- أدعو الله أن يعود

رفع عمار يديه وهمس ببضع كلمات وصل بعضها لسمع أخته التي فهمت مجمله

نظرت جنى وعيناها تطرفان بشده ثم انفجرت ضاحكةً: عمار بماذا تدعو؟ واستغرقت في الضحك

- أنت تقولين يجب أن يكون لنا أب

- أن يعود وليس..... حاولت كتم ضحكها لتخرج كلماتها بشكل صحيح وقالت باستخفاف: حبيبي دعاءكَ لن يستجاب،،

قالتها بنبرة الواثقة بينما تجهم وجه الصغير فقد تلقى النتيجة النهائية لطلبه.

هرول قلقا إلى والدته وقال محتجا:

- ماما ألم تقولي أنّ الله يستجيب الدعاء، يعطينا كل ما نريد.

هزت الأم رأسها حينها التفت عمار لأخته وهز رأسه كما فعلت أمه لكن بتعبير الانتصار

لكن جنى احتفظت بابتسامتها وثقتها:

أخبر أمي بماذا دعوت.

نظر عمار لوالدته في تردد وهمس: قلت يا رب وأخفض صوته أكثر ورفع يده يغطي بها فمه وكأنه شعر أخيرا بالخجل: أعطني أبا جديدا،، ودس أصابعه في فمه وبدت ابتسامة خجلةٌ بين شفتيه

أخيرا تدخل عاصم الذي اكتفى بمراقبة الحوار إلى أن وصل إلى الجزء الذي يعنيه:

لن يكون هذا، ليس لك إلّا أبٌ واحد

أشاح الصغير بنظره إلى أمه يستنجد بها: لكن الله يقدر.

- أنت لا تفهم،،،

بادر عمار معترضا وهو يسند يديه على خصره: أنا سوف أدعو لنفسي

اقترب عاصم من أخيه ووضع يده على رأسه وأصابعه تلهو بشعره بشكل استفز الصغير: آمين يا حبيبي

بينما لاذت أم عاصم بالصمت ، فالخيبات التي يصدرها الكبار تكون قاتلة.

***

الجو اللطيف الذي يسمح لك بالبقاء خارج المباني بعيدا عن أجهزة التكييف ، بحيث يسعك الجلوس دون تأفف ، يمنح ذهنك مساحة من الصفاء يمكن أن تستغله للإنتاج الفكري.

وبالرغم من اختلاف توجهات الناس وغاياتهم، والذي يجد غالبيتهم هذه الأجواء فسحة لراحة فكرهم، إلّا أن أكبر متنزه في المدينة يغص الآن بهؤلاء جميعا، مما اضطر الأستاذ أحمد للبحث طويلا عن موقف مناسب لسيارته ، وحين تحقق من عجزه ، أقنع نفسه بالمشي الذي سيحرر فيه هرمون السعادة وبالتالي يحقق إنجازا يستحق هذا العناء ، ومع ذلك فقد أذعن للجلوس في أول كرسي شاغر قابله عند دخوله للمتنزه ، وبين كل شهيق وزفير يطويان أنفاسه يتخيل صديقه عبدالله يردد: أخبرتك أن اللياقة البدنية مهمة ، خاصة وأن وظيفتك

تحتم عليك مقابلة الآخرين وقد يكون غالبيتهم من ذوي المشكلات الذين ضاق بالهم وستخنقه أنت بتلاحق أنفاسك ، فيرد عليه: لن أركض قبل المقابلة.

بينما يعدل جلسته ليختار الوضعية المناسبة لامست صفحة وجهه حقيبة، رمش بعينيه قليلا ليطمئن على سلامتها وحمد الله أنها لم تخطف عينه، في حين رفع بصره ليعرف ما لذي جعل تلك المرأة تسير بهذا الاعوجاج الأحمق حتى كادت حقيبتها أن ترتطم به على الرغم من مساحة الممشى الكبيرة.

لاحظ درجة الالتصاق الكبيرة بينها وبين زوجها ذاك الالتصاق الذي يصف بإيجاز درجة الهيام وتذكر حواره الأخير مع صديقه ، ابتدأه بلا مقدمة تلبسه طابع الجدية:

- ما مدى الانفجار الذي قد يولده الضغط

- كبيرٌ جدا، لدرجة يصنع منك عالم فيزياء

تجاوز استخفافه: هل تقبل رأس زوجتك؟

- هل أصبحت باحثاً أُسرياً أو مصلحاً اجتماعياً؟

أعتقد أن والدي يفعل ذلك أحيانا

- يقبل رأس زوجتك؟

- بل أمي يا...

آثر أن يجعل شتيمته على هيئة سؤال: هل أصابك شيء، بعد انشغالك في مهمتك هذه، فأنت لا تبدو طبيعيا!

- أنا أفكر

صمت قليلا يفكر ثم قال: هل يمكن أن تقع في حب امرأة أكبر منك سنا؟

بنبرة مستنكرة وكأنه يدفع العيب عن نفسه: أحب!

- أقصد أن تقبل بالزواج بها

نظر له مطولا ومن يرى نظراته سيعلم أنه يتهم من ينظر إليه بعقله: ما فائدة هذه الأسئلة؟!

- إذن لن تقبل

شعر عبدالله بانه يضيع وقته بهذا الحوار فأمسك بالأوراق المتكدسة أمامه يقلبها: ربما لو كانت بنك أموال

وضحك من مقالته التي استرعت اهتمام أحمد: من يريد المال يريد البنك ومن يريد الاهتمام والحنان يريد أنثى

غادر أحمد المكتب وسط ذهول عبدالله الذي شيعه بنظراته وهو يقول: لا حول ولا قوة إلّا بالله

ترك القلم وسط الدفتر وأغلقه سئما

لم يكن يوما كاتباً ويخشى من كلماته أن تقصر عن أداء المعنى الذي يعينه في وصف مشاعره

وكم عانى؟

يجب أن يعرف الأستاذ حقيقة الشخص الذي يحامي عنه.

قرر مغادرة المنزل لعله يجد في ذلك سلوة له،،

استوقفه سعال أخته المستمر في الغرفة المجاورة، يخيل إليه أنها تتقيأ رئتها المريضة

لم يطل الوقوف فليس هناك ما يمكنه فعله.

تحرك بضع خطوات حتى وصل لأعلى الدرج وانكمشت ملامحه حين سمع صوتا أفزعه ثم توقف السعال.

لم يكن غريبا ما سمع لكنه استنكر على نفسه عدم مبالاته.

- لابد أن أفعل شيئا وإلّا ماتت ونحن ننظر

قفل عائدا حيث غرفة أخته وفتح الباب من دون أن يطرقه وقال بلهجة الأمر:

سارة قومي للمشفى، حالتك لا يمكن السكوت عنها

نظرت إليه ببرود بينما يعجز جسدها المنهك من إصدار أيِّ رد فعل: من سيأخذني؟

- قد أتصل على عمي يوسف أو خالي،،،

- وأبي؟

- غير موجود

- قد يعود

- طالت غيبته، شهران إلّا عشرة أيام مضت على مغادرته

- إذن اقتربت عودته

- لا عاد

استرعت الجملة انتباه جنى التي كانت تمر حينها ويبدو أنها قد أثارت فيها حنان البنت لأبيها فاستنكرت: كلكم لا تحبونه! هذا أبوكم

- إذا مرضتِ لا تزعجي أمي ببكائك، بل اذهبي للقمامة التي رمي فيها دواؤكِ وابحثي عنه

نظرت له بكبرياء محتجة أنه مهما صدر من الأب فهو أبٌ: ولو

- ماذا؟

- أخطأ خالي، كان يجب ألّا يذهب بي للمشفى دون إذن أبي

استدار بكامل جسده ليواجه أخته التي فاجأته برأيها: نعم أخطأ! كان يجب أن يتركك تموتين ونرتاح منك

- لن أموت بسبب زيادة حرارة

- قد تفقدين بصرك وهو أسوأ

طرفت بعينيها وكأنها تطمئن على بصرها ، دون أن تجد جوابا

فيما اكتفى عاصم من الجدال والتفت يلقي نظرة على سارة التي غطت جسدها تماما باللحاف ثم أغلق الباب

***

تحت اللحاف،، تحت مستوى السمع وفوق مستوى التحمل

أنين تشقه الذكريات الفقيرة لحنان الأم ودلال الأب

ذكريات لا يربطها بها إلّا هزالها وضعف بنيتها بسبب الربو الحاد الذي ولدت به

وبسببه حكم عليها بالنفي لبيت جدتها وهذه الأخيرة لم ترهق نفسها بتلطيف الحقيقة كما لم تبخل بتحرير الشتائم المدفونة حقدا والتي لم تجد لها متنفسا إلّا صدر الصغيرة المريض.

ورغم ذلك تفضل الآن أن تسمع تلك الشتائم مجددا على أن تعيش مع المشتوم نفسه

لكن الخيارات غير متاحة:

رحم الله أمَّ الشتائم

تمتمت بالكلمات دون أن تسمع نفسها حين طفرت الدموع من عينيها فانغمست أكثر تحت اللحاف رغبة في الاختباء من الذكرى التالية

ذكرى لقائها الأول مع والدها، ندمت على أنها لم تسأل جدتها يوما كيف يجب أن تستقبل البنت والدها فهي تجهل تماما طبيعة العلاقة بينهما

فيما عدا ما يبث في التلفاز وتجهل مدى مصداقيته

كانت تذهل عند مشهد من نوع اشتقت لك يا ابنتي، اشتقت لك يا أبي

يحتضنها وتتشبث به وعندما لا تنفك عن البكاء يرفعها ليطير بها في الهواء فتتناثر الدموع مع الضحكات.

والصغيرة لا ترمش بل تحدق بعينيها وكأنها قد رحلت إلى عالم آخر لا يسمح بإغلاق العينين

تفضل العجوز أن تختار حفيدتها مشاهدة سالي برغم مشاهدها الحزينة على تلك الأفلام المضحكة والمسلية التي تحوي أماً وأباً وأبناء حتى لا تجد نفسها مضطرة لتشرح لسارة لماذا هي لا تعيش مع والديها؟

ملت حد الغثيان من تكرار الجواب: والدك لا يحب الأطفال، لم يحتمل طفلا سليما، فكيف بك وأنت مريضة

- لا يوجد أبٌ لا يحب أبناءهُ

كان واضحا أنها حفظت ما سمعته للتو من التلفاز، وهذا ما فاجأَ الجدة وقررت أنها لن تشوه هذه الفكرة الجميلة:

انظري لي، انا وحيدة، قلت لأمك أريد سارة أنا أحبها وأريدها أن تعيش معي

انطلقت ضحكة مرحة من ثغر الصغيرة التي انتشت للتو من فكرة الحب، هي ليست هناك لأنها مكروهة بل هنا لأنها محبوبة.

- أنت تحبينني؟

- نعم

- أنا سأبقى معك

عادت بانفعال الطفولة الحاد لمتابعة التلفاز

ارتسمت ابتسامة رقيقة على وجنتيها التي لم تكتسب حمرة قط لشحوبها رغم سخونة الأفكار والجو تحت اللحاف، فأزاحته.

***

يوم مشمس لا يبدد قتامة أحداثه ولا تشرق به.

تنحى عاصم مبتعدا عن خط الشعاع النافذ، أبقى يديه ملتصقتين وخبأهما بين فخذيه: كتبت

أظهر الأستاذ أحمد اهتماما حيث لم يتوقع استجابة من عاصم لإلحاحه عليه بالكتابة: ممتاز

سكت قليلا ينتظر ردا من جليسه لكن الأخير حافظ على صمته: ومتى سيكون جاهزا لاستلامه؟

- تستطيع أخذه اليوم

- حقا؟

خشي من استهتار عاصم وأنه ربما لم يكتب: قد تحتاج بعض الوقت لتكتب أكثر، اكتب كل ما ترغب بكتابته ، لا تُبقِ في صدرك حديثا يقلقك كتمانه

- فعلت

ولينهي الحوار مد يده بالدفتر.

يحرك الأستاذ يده مجاراة للشاب ليظهر له ثقته لكن حركة يده البطيئة أظهرت ارتيابه

لكن نظرة عاصم أخبرته أنه مدرك، فسارع وقبض على الدفتر.

- لم أجدك عابسا كاليوم! هل حدث شيء؟

- لا

ساد صمت مقلق حاول تبديده فتنحنح: ما رأيك أن نخرج؟ نغير المكان ونتحدث

هم بالوقوف ولم يطل بل سار إلى الباب: أنتظرك في السيارة

***

ارتشف قهوته وشعر بالرضا لمحاولته الناجحة لتسلية عاصم الذي تشاغل بقهوته يوازن كمية السكر فيها فيما غادرت ملامحه تجاعيد العبوس

أفلتت منه ابتسامه بينما يقرب قهوته ليستنشق هدوءها حين فاجأه عاصم: توقعت من الكتابة أن تريحني ، شعرت بالكلمات تئن وترسل أنينها خنجرا في صدري.

- أنا آسف يا...

- مع ذلك أشكرك

رفع الأستاذ بصره الذي أخفضه أسفا

- جعلتني أشعر أني سوي وأن من حقي أن أكره

لم يفهم قصده ولم يقاطعه

- لا يجب علينا أن نقبل المسيء لنا وإلّا لما تميزنا بالكرامة، وكنت قويا وعشت كل تلك المرارة التي لم يذقها أصدقائي الذين هجروني بعد التحقيق لأنهم اعتقدوا أني سيء وأن هذا الناتج الطبيعي لحياة سيئة.

ودون مقدمات قفز في حديثه للوداع: أرجو أن يكون هذا اللقاء الأخير أيها الباحث الذي تدعي أنك أخصائي مرسل من طرف

الشرطة، أكمل مفاجأته وهو يهم واقفا: عرفت ذلك مبكرا وأحببت أن أساعدك في أبحاثك وطلبت من أمي إلّا تطلع أحدا على أمرك لئلا يظن الناس أني متهم أو مريض أو شيء آخر لا يسر،، وأعتقد أنني شعرت بالسعادة في وجود شخص مهتم.

غادر عاصم وسط ذهول الأستاذ وصمته.

***

- هل عرفتي عن العائلة شيئاً؟

- أخبرتني أمي عنهم كما قالت لها قريبة الأم أقصد زوجة المفقود

- ما قرابتها؟

- خالة

- أخبريني

- ليست أمه

- من؟!

- زوجة المفقود ليست أم هذا الشاب الذي تبحث في شأنه

تراجع الأستاذ أحمد حتى التصق ظهره بظهر مقعده: هل يعرف؟

- نعم

قلَّبَ بصره متفكرا: لم يخبرني!

قدمت له فنجان القهوة فالتقطه: قد يظنك تعلم

زم شفتيه ليظهر عدم اقتناعه

- لابد أن علاقتهم جيدة حتى أنك لم تلاحظ

- يناديها أمي.

قلب عينيه مفكرا: وأمه؟

- لا أعلم عنها شيئا، ألم يكتب عن أمه؟

- لم أقرأ ما كتب، آثرت أولا سؤالك عمّا توصلت له

- هل هذا مفيد في أبحاثك؟

- أعتقد ذلك

ما إن أنهى جملته حتى قام إلى مكتبه فقد أصبح أكثر شغفا لقراءة محتوى الدفتر

***

كان صغيرا،، أصغر من أن يسع حقيقة مؤلمة فآثر الابتعاد إلى الحد الذي يتلاشى فيه صوت الشفقة

والآن ضيق ،، لا يقوى على اجترار الماضي وأحزانه المسمومة.

ذاك قلبي.

نصحني أحدهم بان أحتفظ بماضيّ في طي الكتمان، لأنه يحمل عنوان « كيف يعيش المنبوذ »

والبشر مفطورون على نبذ المنبوذ ولو بدون حق، تشعر تجاهه بالعطف والشفقة التي تسقط مكانته في أعينهم.

لا تخبر أحدا بجرحك فلا تعلم أيهم الطبيب الذي يكشف عليه ليعالجك أو لئيم يضغط عليه ليقتلك

اعتقدت حقا ما قاله، يجب أن أصمت

قد أجهل تفاصيل الأحداث وشخوصها لكن يكفي أن أعلم أهم أحداثها

حُرِمْتُ التعلم الطبيعي من الحياة في أولى سنوات حياتي ثم تتدافع الأشياء أمامي فجأة

فطرتي تأبى إلّا أن تسأل: ما هذا؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ وأين؟

كل شيءٍ يبدو غريبا وكأنني للتو قد خرجت من بطن أمي بعد أن بلغت الخامسة

لم يأبه أحدهم بجسدي الذي انزلق ليفارق حُضنه الأول

لم يأبه بصوتي الذي صاح ليعلن بدء ميلاده من تلك اللحظة الذي تم تجاهلها ولمدة خمس سنوات

بداعي الانتقام تركني في المستشفى الذي ولدت فيه، وقد رتب كل شيء لتسير الأمور كما يجب

تجاهل طلب إخلائي من المشفى بعد خروج والدتي التي كانت قد أنهت عدة طلاقها بمفارقتي لجسدها

كافحت أمي لإخراجي لكن أحدا لم يأبه بها أو بي

اعتبروني ملكا لأبي،، ملكا لا يحفل به إلّا بقدر ما يشفي غليله من أمي حين رفضت العودة إليه

ألهمتني السماء أنّ عليَّ أنْ أبكي لطلب العناية

أعتقد أنني شربت الحليب لكن دون أن ألتقم ثدي أمي المهم أني شربت، متأكدٌ من ذلك لأني موجود الآن

وبعد أن ظهرت أسناني مزقت حلمة الرضاعة ولم يعي أحدهم أن ذلك كان احتجاجا على نوع الغذاء

سمعت صراخا إثر ذلك، لم أفهم ما تقوله لكني فهمت أن تمزيق الحلمة خطأ لكني متورط بأسناني التي خرجت ، الحلمات التي لا تحتمل ضغطها، هناك مشكلة إذن! لكن ماهي؟

بقيت في نفس المكان، الدنيا، الحياة التي اختنقت في غرفة لا يتغير فيها شيء

مرت السنوات دون أن يتغير شيءٌ ولم أعانِ من فطام ولم أُدَرب على طلب الحَمَّام

الجدران، الأثاث، الأدوات، والمرأة نفسها التي تأتي بين الفينة والأخرى ولم أحتج قط على دخولها أو خروجها

لا يتغير شيء إلّا أنا

لم يطلب مني أحدهم أن أنمو لكني فعلت ذلك وخلعت الحفاض الذي يبقي الفضلات ملتصقة بجسدي

فأتضايق وأبعده فيتناثر ما بهِ، أتجاهله وأتجه للدُرْج الذي يحتوي على بعض الأدوات المهملة لذلك اعتقدت أنها لي والطيور على أشكالها تقع.

وعندما تدخل تلك المرأة وتشهق أعرف أنّ هناك خطباً ما وأنها غاضبة وفي كل مرة كنت أجهل ما لخطأ؟ ولكن لا أجهل المشي والركض بالرغم من أن أحدهم لم يتطوع لتعليمي،

لم يحثني أحدهم لأجلس ولم يُغَنِّ لي لأخطو، ربما اكتشفت ذلك بسبب وجود تلك الأشياء المرتفعة التي تغري للوصول إليها كما اكتشفت لاحقا أنّ عليَّ أن أبتعد الآن لأنني حتما لن أحصل على شيء جيد لو لم أبرح مكاني

لابد أنني مرضت كثيرا قبل ذلك اليوم لكن ذاكرتي لم تكن مهيأة لتحتفظ بالأحداث

كنت حينها قد بلغت الرابعة تقريبا أعرف ذلك لأني خرجت بعدها بسنة من بطن تلك الغرفة، سنة الخروج من الغرفة اعتبرتها سنة ميلادي

الحقيقي وبهذه الطريقة استطعت تأريخ الأحداث ومعرفة كم كان عمري حينها

ذلك الوقت أردت أن أستيقظ كالعادة وأغادر سريري المحاط بسياج لا يعجزني اجتيازه، ووجدت نفسي عاجزا، شيئا ما يثقل جسدي وعندما استسلمت استندت بصدري ووجهي على السياج أنظر من خلاله لكل تلك الأشياء التي لم أعرف غيرها حتى مللتها

لا أعلم كم بقيتُ على هذه الحال؟

وعندما دخلت المرأة إلى الغرفة كنت أتساءل هل أتت مبكرة على غير عادتها أم أنني بقيت طويلا في سريري دون أن ألعب ولذلك لم أشعر بالجوع؟

وقفت عند رأسي ونظرت إليَّ ثم أدخلت يدها من بين أعمدة السور وضعت كفها على جبهتي وتأوهت

فهمت أنّ الأمور لا تسير بالشكل الطبيعي خاصة بعد أن حركت شعري بلطف وأحببت ذلك الشعور

ومع ذلك شعرت برغبة في البكاء وبكيت

كان ذلك جميلا حين رفعتني بكلتا يديها وضمتني لصدرها مما جعلني أبكي أكثر

لم أشأ أن أبكي أردت أن أتوقف لئلا تعتقد أنني منزعج فتبعدني عنها وفاجأني أنها ضمتني أكثر وأكثر فسكنتُ

أصبحت تلك المرأة تعني لي أكثر من حليب وحفاض، أردت أن تبقى أكثر بقربي لكنني عاجز عن الكلام

أستطيع أن أصرخ وكل ما يفعله الصراخ هو أن يطردها

بدأت أتعرف على أشياء جديدة منها الحرمان

كرهت اللعب وكرهت زجاجة الحليب وعندما أمسكتها بيدي رميتها بشدة فارتطمت بالجدار فشهقت المرأة كما تفعل دائما عندما تغضب

ولكني هذه المرة أنا غاضب أيضا فلم آبه لشهقتها ولم أهرب بل هممت بخلع ملابسي لانتزع الحفاض لكنها أسرعت وأمسكت بيدي وهي تصرخ فركلتها بقدمي وهي تردد No الكلمة الوحيدة التي تخرجت بها

عندما بلغت الخامسة أُفْرج عني

بعد أن استعانت والدتي أخيرا بخالها الذي هدد والدي بالمحاكم فسارع والدي لإخراجي وحبسي عنده قبل أن يعرف القضاء بقصتي ويحكم بي لأمي

عجز عقلي أن يدرك ما يجري، وبالرغم من قسوة الماضي إلّا أنّ الإنسان عدو ما يجهل

اعتقدت أنه منزلٌ مؤقتٌ خاصة بعد أن حضرت أختي لأول مرة للمنزل

بعد أن نفاها والدها الذي هو أبي إلى جدتها تسكن في منطقة أخرى وإلّا ستلقى مصيري

رايتها لأول مرة وأنا في العاشرة من عمري وهي تصغرني بسنتين

- هل هذا الكتاب المائة لنفس الموضوع؟!

الأستاذ عبدالله زميل الأستاذ أحمد الذي يشاركه المكتب في الجامعة يقف دون أن يكلف قدميه الكثير من العناء لحمل جسده الذي ألقى بنصفه على مكتب الأستاذ أحمد بينما يقلب الكتاب أمامه الذي يحمل عنوان العنف الأُسري والجريمة.

رفع رأسه قليلا حين التفت الأستاذ أحمد فتقابل وجهاهما، تراجع بكرسيه قليلا بشكل مفاجئ ثم استدار.

أحس عبدالله بكثير من الحرج فأسرع في مشيته ليختفي في كرسيه

- أحتاج إليه بشدة

تفاجأ عبدالله برد أحمد كان يعتقد أنه غير مستعد للحوار.

وهذه المرة بينما يبعد عبدالله بشكل كافٍ استدار أحمد بكرسيه ليقابل عبدالله: هل سمعت قصصا عن ابن يقتل أباه؟

عقد عبدالله حاجبيه ونظر إلى أحمد معاتبا أو مشمئزا وربما بكليهما: ماذا تقول؟

لكن أحمد لم يأبه: أعتقد أنّ هناك قصصا من هذا النوع، لكن كل ما أعرفه هي سوالف تناقلها الناس، الصحف قد تنقل شيئا من هذا، مع ذلك أحتاج لجهات موثوقة تتحدث عن هذه الجرائم وبالتفصيل

قال ذلك بينما حلق بإصبعيه السبابة والإبهام في إشارة إلى الدقة

***

هذا اليوم الثالث منذ قراءته لما كتب عاصم ومازال ذلك يؤرقه

كان يتقلب في فراشه بعد عودته للمنزل ظهرا يتذكر كيف التقى به أول مرة بعد

أن سمع بقضية اختفاء والده من خلال الشرطة الذين تربطه بهم علاقة وثيقة

بحكم نشاطه الاجتماعي ولذلك سمحوا له بمرافقتهم ولكنه استغل هذا الظهور

ليعاود الزيارة مرة أخرى كإخصائي اجتماعي تابع للشرطة

رنين الهاتف قطع تفكيره

رفع جواله ينظر إليه ودقق في اسم المتصل

عاصم يتصل بك!

ألم يطلب إنهاء اللقاءات! ماذا عساه يريد الآن؟

- أستاذ أحمد،،، صوت مرتبك يصله من الطرف الآخر

- أهلا يا عاصم

- هل يمكنك الحضور؟

حاول الأستاذ أن ينصت وبدا له من الأصوات الكثيرة والمختلطة أنه خارج المنزل: أين أنت؟

- في المستشفى؟

- في المستشفى؟ هل حدث شيء؟

- نعم

سكت قليلا ثم سمعه يتحدث لشخص آخر

- عاصم

- أرجوك تعال بسرعة أنا خائف ولا أعلم ماذا أفعل؟

***

كالعادة المستشفى يضج بالمرضى والمراجعين وكأن ليس في الأرض معافى.

دلف إلى الداخل وراح يقلب بصره يبحث عن عاصم وعندما لم يجده، أخرج جواله ليتصل به ، لكن عاصم فاجأه من الخلف، ووجهه يبدو كجثة محنطةٍ وهمس: وجدوا أبي

استدار الأستاذ بكامل جسده دون أن يحاول إخفاء استيائه الذي ظهر على ملامحه: لماذا؟ أقصد كيف؟ أين؟ هل هو هنا؟

- أتوا به إلى هنا

- لم افهم! هل هو حي

- تقريبا

- ماذا تقصد؟

وعندما لم يتلقَّ جوابا من عاصم الذي رمى بجسده على الكرسي المجاور أكمل الأستاذ إطلاق أسئلته

التي راحت تتقافز لذهنه: هل رأيته؟ ما لذي يحدث الآن؟ ولماذا أنت مرتبك؟ لماذا طلبت مني الحضور؟

- أنا آسف

- لا لم أقصد... أقصد أنني لا أفهم

- اتصلت بي الشرطة وأخبروني أنهم وجوده

هز الأستاذ رأسه مشجعا

– قالوا إنه تعرض لحادث في منطقة أخرى، كان قد ترك كل أوراقه الثبوتية في السيارة عندما اجتاز الشارع فصدمته سيارة، غاب عن الوعي ونقل للمستشفى وهناك تبين أنه أُصيب بموت دماغي ولم يعرفوا هويته وبقي هناك حتى وجدوا سيارة متوقفة منذ ما يقارب الشهرين وهذا مخالف وعند تفتيشها وجدوا الأوراق الثبوتية بداخلها وبربط الأحداث عرفوا كل شيء ونقلوه إلى هنا.

– هل رأيته؟

– لا

أخذ الأستاذ أحمد يتلفت حوله كانه يبحث عن شخص ما: هل معك أحد من أقربائك

– لا أحد

فجأة قال دون مقدمة: قرأتُ ما كتبتَ

انتظر قليلا ليتلقى ردة الفعل قبل أن يستأنف حديثه: هل كنت تعيش هنا الخمس سنوات الأولى من حياتك؟ استغرب كيف استطاع والدك فعل ذلك دون أن يجبره المستشفى على استلامك؟

- ادَّعى أن امي مريضة ولا يوجد من يعتني بي ودفع لهم مقابل بقائي

نظر إليه الأستاذ يتفحصه: من أخبرك؟

حانت من عاصم التفاتة قصيرة ألقى خلالها نظرة خاطفة على جليسه: أمي

تنحنح: تقصد زوجة أبيك

- بل أمي

- لم أعلم أنَّ لك صلة بأمك؟

- لم يعلم أحد قبل الآن، إلّا من يوصلها

- يوصل ماذا؟

- الرسائل، تكتب أمي الرسائل لي وترسلها مع طالب كان يدرس معي في الابتدائية، والدته تعرف أمي

- ولاتزال تتواصل معها بنفس الطريقة؟

رفع عاصم يده التي تحمل الجوال: نتواصل عبر رسائل الجوال

- تتصل بها

- حدث ذلك مرة واحدة، في أحد المرات فتش جوالي ووجد رقما غير مسجل في سجل المكالمات وسألني عنه اضطررت إلى الادِّعاء أنه لطالب في المدرسة كنت قد سألته عن واجب مدرسي ولا علاقة لي به لذلك لم أهتم بتسجيل رقمه، بعدها طلبت من أمي إلّا تتصل نهائيا، لأحافظ على اعتقاد أبي بجهلي حيال وجود أمي

ضرب كفيه ببعضهما دون أن يصدر صوتا: كان يخبرني أنها ميتة

***

استغل الطبيب وجود رجل بقرب عاصم ليسمح له بالدخول على والده الساكن تماما على السرير

حتى إذا أصابه مكروه جراء الانهيار المتوقع في لحظة كهذه ، لحظة التقاء الابن بأبيه الفاقد للوعي، كان هناك من يسنده!

الخوف الذي انتاب عاصم وهو يتقدم بخطوات متثاقلة نحو الغرفة التي يرقد فيها والده

أشعره بمدى الضعف الذي سيطر على شخصيته

وجعله يخشى حتى من مقابلة من يعتبره الطب ميتا

توقف على بعد قدمين من السرير

فيما حثه الحذر على تأخير قدم كبادرة أُولى للهروب

تأمل والده جيدا ونظر إلى عينيه المغمضتين، خيل إليه أنه يراقبه

ولن يبقى صامتا مقابل عقوقه

فكيف لشاب لم يقابل والده لفترة طويلة لا يهم بتقبيل رأسه عند أول لقاء:

ويدي أيضا لن تقبلها!؟

فزع عند هذه الذكرى وكأنه فعلا يسمعها من والده الآن

فتحرك بجسده إلى الخلف قليلا

في ظل نظرات الباحث المترصدة لاحظ مدى الجفوة بين الاثنين

فكر: لو كان هذا الجسد باستطاعته القيام بتمثيليةٍ خادعة، فلا غرابة أن يخشى انقضاضه متحينا فرصة اقترابه إن هو قطع هذه المسافة بينهما.

تكلم عاصم بعد طول صمت موجها سؤاله للطبيب الذي يقف بجانبه ويبدو مستعدا لأي مفاجأة: هل سيصحو؟

ضع الطبيب يده خلف ظهر عاصم وربت عليه يحاول أن يشد من أزره قبل أن يطلعه على الرأي الطبي فيما يخص حالة والده: كل شيء بيد

الله، نحن فقط نحاول، وكما أخبرتك في الغالب لا يصحو من أصيب بموت دماغي.

لاحظ الطبيب بينما يقف إلى جانب عاصم وينظر له الآن ليرى وقع كلامه عليه، أن هناك انفراجا بين شفتيه ظهرت كردةِ فعل غريبة لا تشبه ردة الفعل الطبيعية في مثل هذه الحالة!

***